

وضعهُ

امين بك واصف

مدير الجيزة

علموا اولادكم فانهم
خلقوا لزمان غير زمانكم
« الامام علي »

قررت نظارة المعارف استعمال هذا الكتاب
بالمدارس الابتدائية والثانوية

الجزآن الاول والثاني

في الأخلاق والاجتماع

(طبعة ثالثة)

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر



وضعه

امين بك واصف

مدير الجيزة

علموا اولادكم فانهم
خلقوا لزمان غير زمانكم
(الامام علي)

قررت نظارة المعارف استعمال هذا الكتاب
بالمدارس الابتدائية والثانوية

الجزآن الاول والثاني

في الأخلاق والاجتماع

(طبعة ثالثة)

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على جميع أنبيائه وأصفيـــائه

مقدمة

أساس السعادة نظام الحياة؛ وأساس هذا النظام التعليم .

ولكن التعليم، بلا تربية توصل أثره الى أعماق القلوب الرطبة، كحرث الارض على عمق غير كافٍ؛ اذا أنبتت زرعها، خرج بين أعشاب ضارة بنموه او حياته .

طالما رأينا التعليم المجرد عن تهذيب النفوس، وترقيق المشاعر، معولاً من معاول تقويض النظام الاجتماعي

شغلتني هذه الفكرة اياماً ، فأجلت النظر في كتب الأدب العربية؛ فلم أجد فيها مع وفرتها ، ما سد طلبتي ، كما أراه عند الافرنج من تعدد الكتب الخاصة بتربية الاحداث ، المعروفة عندهم باسم :

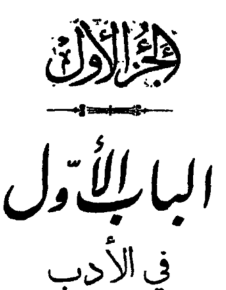
Morale et Instruction Civique.

فوضعت هذا الكتاب في أويقات فراغي ، بمساعدة الفاضلين :

الشيخ محمد شلبي المفتش بالمعارف ، ومرسي شاكر أفندي المدرس بمدرسة بنها الابتدائية ، موقناً انهُ بمثل هذه الكتب ، ينبت الطفل نباتاً طيباً ؛ حتى اذا ما بلغ أشدّه ، أصبح واسع الادراك ، ذكي الفؤاد ، مثقف الشعور

هذا وليذكر المعلمون ، ان ما جاء في هذا الكتاب ، ليس الاَّ مسائل مجملة . والاستاذ انما يحدث الصغير في أرقى الموضوعات بأبسط العبارات . فعليهم — كذلك عند المطالعة — واجب البيان والتبيين ، بأكثر مما جاء بهِ أستاذ الكتاب ؛ بتكرير الشواهد ، وضرب الامثال ؛ كي ترسخ هذه الحقائق في أذهان الأطفال ، وتنقش في مخيلتهم ثابتة كالنقش في الحجر . وهنا حقاً ، تتفاوت قوى المعلمين . فليس المسطور في الكتب الاّ طرقاً للارشاد ؛ وقدرة المعلم هي سر النجاح ، والافادة ، والله الموفق لما فيهِ خير عباده .

محمد أمين واصف



في الأدب

الفصل الاول — في الحرية

« (١) النواميس الطبيعية »

المعلم — ما الذي خطر ببالك أمس حينما شاهدت الشمس جانحة للغروب ، والظلام مقبلاً ؟

التلميذ — خطر ببالي ان الشمس لن تعود ، وان هذا الظلام باق لا يتحوَّل .

المعلم — وما الذي جال بخاطرك حينما شاهدت النجوم ساطعة في السماء ؟

التلميذ — ظننت ان هذا المنظر سيدوم ، وان هذه الكواكب ستظلّ ساطعة .

المعلم — وحينما عادت الشمس و بعثت أشعتها في الأفق؛ واستمرت على هذه الحال ، تغيب ليلاً وتظهر نهاراً ؟

التلميذ — أيقنت اني مخطىء في ما تخيلت .

المعلم — ما الذي تستنتجه من هذه المشاهدات ؟

التلميذ — استنتج ، ان الاجرام السماوية تجري على قوانين ثابتة لا تتغير .

المعلم — هل الاجرام السماوية وحدهـا ، هي التي تجري على قوانين ثابتة ؟

التلميذ — أظن ذلك .

المعلم — كلا . . يا بني ؛ ان الاجرام السماوية وغيرها من الكائنات ، (الحيوانات والنباتات والجمادات) تجري كلها على قوانين ثابتة ، ونواميس لا تتغير « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

(١) فالحجر المقذوف في الهواء ، لا بد ان يسقط على الارض ؛

(٢) والشجرة لا بدَّ ان تنمو ، ما لم يمنعها عن النموّ عائق ؛

(٣) والحصان مثلاً ، ينفق كسائر الحيوانات ؛

(٤) والنتائج المتشابهة بالاجمال ، لابد ان تكون اسبابهامتشابهة .

وهي قاعدة من القواعد الكلية التي تمثلها جميع الكائنات .

يا بني ! ليس المراد من القانون هنا القواعد الوضعية التي تضعها الحكومات ، في التشريع والادارة ونحوها ؛ بل المراد بالقانون النظام الإلهي ، الذي تجري على مقتضاه الكائنات السماوية والارضية :

(١) كجذب الاجسام بعضها بعضاً ، حتى الاجرام السماوية ؛

(٢) وجذب الكبيرة منها الصغيرة (فالحجر المقذوف الى أعلى ،

لا بد من سقوطه على الأرض بقوة الجذب) ؛

(٣) والتصاق الاشياء الثقيلة بالارض بقوة الجذب العام (وهذا هو الحافظ لنظام ما على وجهها اثناء دورتها) ؛

(٤) وطفوُ الاشياء الخفيفة على سطح المــاء ، لاختلاف الثقل النوعي بينهما ؛

(٥) ومشابهة نتائج الحيوانات والنباتات لامّاتها في الجنس . ألا ترى ان بيضة الحمام ، لا تفرخ الاَّ حماماً ؛ والغصن المتخذ من شجرة الخوخ ، لا يثمر بعد غرسهِ الا خوخاً ؛ وغير ذلك من القوانين التي تحققها المشاهدة والعيان ، وان لم تدرك أسرارها . وما عدا ذلك — مما يخالف هــذه القوانين الطبيعية الثابتة ونحوها — انما يجري بمقتضى المصادفة ، والاتفاق الذي لا تتناوله الافهام .

(٢) « النفس والارادة البشرية »

المعلم — ماذا تفعل مساءً ، بعد خروجك من المدرسة ؟

التلميذ — سألعب مع رفاقي قبل الذهاب الى المنزل .

المعلم — اذا كان ذلك في ذهنك ؛ هل تتخيل ان هنــاك باعثاً من القوانين الثابتة التي أشرنا اليها سيصرفك عن قصد المنزل الى مرافقة رفاقك ؛ كما تتدحرج الكرة التي تصادف منحدراً ؟

التلميذ — لا ! لأن الكرة التي تصادف منحدراً ، لا بد أن تتدحرج . اما انا، ففي امكاني أن اروض مع رفقائي ساعة ، وأذهب

بعد الى المنزل ؛ وفي امكاني ان أذهب الى المنزل مباشرة ، أو الى اي مكان آخر ؛ كما ان رفقائي ، في امكانهم ان يعملوا ما يوافق رغائبهم

المعلم — اذن ، انت مغاير لسائر الكائنـات التي تتبع قوانين الطبيعة الثابتة .

التلميذ — نعم .

المعلم — نعم . . . يا بني ؛ انك مصيب في ما تصورت . لأن الحجر يتدحرج كغيره ، والشجرة تنبت كغيرها . ولكن كل فرد من افراد النوع الانساني ، يخالف الآخرين في اشكالهم وميولهم ، حتى ان التوأمين لا يتشابهان في الصورة والاستعداد .

ذلك لان الحجر مجموع ذرات متماثلة في عناصرها ، لا ارادة لها ، ولا حرية ، أما الانسان ، فانهُ ليس عبارة عن مجموع اعضائه ؛ وانما هو شيءٌ آخر خفي (وهو النفس) التي تحس اذا لابس عضواً من أعضاء الجسم ألم من الآلام . وهي التي تحرك هذه الاعضاء ، وتستخدمها فيما تشاء .

فالفرق اذن بين الانسان وسائر الكائنات ، ان للانسان ارادة تدفعه الى الاقوال والافعال ؛ وهي داع من دواعي التفاضل بين الرجال . أما سائر الكائنات ، فانهـا مجردة من تلك الارادة — ألا ترى ان البخار لا يعمل وحده ، وكذلك الماء ، والنار ، وغيرهما ؟

فالارادة البشرية أثر من آثار القوة ، ودليل من أدلة الحياة

(٣) « الحرية »

المعلم – يا بني ؛ صرحت بانك تذهب الى اللعب مع رفاقك بارادتك ، وانك لم تكن مجبراً ، فهل تعجب اذا نبهتك إلى أن الانسان ، لا يفعل ما يفعل بمحض إرادته ؟

التلميذ – وكيف ذلك ؛ هل الانسان خاضع لعامل آخر خارجي ؟

المعلم – لا ؛ فالانسان ليس خاضعاً لعامل خارجي ؛ ولكنهُ تحت سيطرة عقله وضميره والاَّ كان غير متمتع بالحرية التامة .

التلميذ – وما معنى القضاء والقدر ، اذا كان الانسان مخيراً لا مسيراً ؟

المعلم – [1] يظن البعض ان عقيدة القضاء والقدر ، هي القناعة بحياة يأكلون فيها ، و يشربون ، و ينامون ، مسخرين كالانعام ؛ وان لا اختيار لهم في قول او عمل ، أو حركة أو سكون . ولم يدروا ان في ذلك تعطيل قواهم ، وفقدان ثمرة ما وهب الله لهم من المدارك والقوى . (هكذا ظنت طائفة من الافرنج وكثير من ضعفاء العقول في المشرق) . لا يوجد مذهب من مذاهب المسلمين يقول بسلب الاختيار بالمرة ؛ بل الاعتقاد الديني الصحيح ، ان للانسان جزءاً اختيارياً في أعماله يسمى الكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب ، وهذا لا يمنع الاعتقاد بأن كل شيء بيد الله ، ينقض ما يشاء ، ويبرم ما يشاء . ومتى اقتضت الحكمة الإلهية والارادة الصمدانية ؛ كانت

---

(١) كلمة للامام الشيخ محمد عبده فى الموضوع باختصار

ارادته فوق ارادة الانسان . ان الذي يعتقد ان الأجل محدود ؛ كيف يهاب الموت في الدفاع عن حقهِ ، واعلاء كلمة امته أو ملته ؛ أو كيف يخشى الفقر في بذل ماله لتعزيز الحق وتشييد المجد .

الاعتقاد بالقضاء والقدر ، تتبعهُ صفة الجرأة والاقدام وخلق الشجاعة والبسالة ، ويطبع النفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ويحليها بحلي الجود والسخاء . واعتبر ذلك فيما كان عليهِ المسلمون في الصدر الأول . فتحوا الامصار ، ودوخوا الممالك ، ونشروا أعلام الفضيلة على ربوع الآفاق ، فى مشارق الارض ومغاربهـا ؛ واقتحموا الصعاب اجابة لنداء العزم والارادة ليس الاّ . هذه العقيدة هي التي طالما ثبتت اقدام الفئات الصغيرة من المسلمين امام الجيوش الخضارم والمعتقد بالقضاء يفعل عظائم الأمور غير هياب ولا وجل ؛ لأنهُ يحسب نفسه بتوكله على الله ، في أمان من كل غارة ، وانهُ لا يصيبهُ الاّ ما كتب الله له .

أتعرف يا بني شيئاً آخر يؤثر في ارادة الانسان ؟

التلميذ — لا !

المعلم — هل الناس متماثلو الأمزجة ؟

التلميذ — لا ؛ ان فيهم ذا المزاج الدموي ، والعصبي ، والصفراوي وغير ذلك ؛ والذي أعرفهُ ، ان الدموي يندفع الى الغضب والشدة ، وان العصبي كثير الاحساس ، وان الصفراوي حزين على الدوام .

المعلم — يا بني ؛ ان تخالف الأمزجة يؤثر في الارادة ، فالدموي

هيهات أن يضبط نفسه عند الغضب ، والعصبي قلما يلطف تأثيره ، وكذلك الصفراوي .

ولكنهم ربما استطاعوا مفارقة هذه الامراض، ويدل على ذلك ما يلي :

حكي ان تورين (Turenne) (أحد قواد الجيوش الفرنسية في زمن لويس الرابع عشر) كان يشعر بارتجاف من دوي المدافع في مبدئه ؛ ولكنهُ كان يقاوم ما يداخله بكل قواه ، وينادي صارخاً مازحاً مع افراد جيشه اذا تزعزع (أنت تتزعزع ! أنت ترتجف :). والخلاصة ان الارادة يمكن أن تنجو من هذه العوامل ؛ ولكن هنالك عوامل قوية هيهات ألاّ تتأثر بهـا . هي العادات المألوفة التي تجعل الارادة أشبه بالأرض التي تساهل فيها صاحبها ، طوراً بالرهن ، وطوراً بغيره ، فيحرم ثمراتها . بيان ذلك ، ان الحياة عبارة عن سلسلة عادات : عادة الأكل والشرب ، والنوم والعمل وغير ذلك . وهذه العادات ، ربما تسلطت على الانسان وسلبتهُ ارادته ؛ فما أجدرنا ان نسميها آفة الارادة . ألا ترى ان المدمنين يحاولون ان يتخلصوا من اغلال هذه العادة المرذولة ، ولكن لا يجدون الى الخلاص سبيلاً ؟ فالمرء يتعرى ازاء العادة من ارادته التي وهبها له خالقه ، ويفقد حريته ، واستقلاله؛ واذ ذاك يكون شبيهاً بالآلة الخاضعة لعوامل خارجية .

التلميذ — يا سيدي ان في قدرة الانسان ان يجاذب العادات المرذولة ، حتى تنقطع صلته بها . يدل على ذلك ان كثيراً من المدمنين

أقلعوا عن هـذه الرذيلة ، وكثيراً من المذنبين أنابوا الى الله وتابوا توبة نصوحاً ، ومن الواجب على الانسان ان يلاحظ ان قيمته بارادته ، وان يحتفظ بها كل الاحتفاظ

المعلم — نعم يا بني ؛ ان هذا الشعور أقوى باعث للحرص على الحرية ، وأعظم مسوغ لأن تجيب بهذه الجملة – أنا حرّ – من يدعي انك مقهور ؛ ولا منافاة بين توفر الارادة ، وخضوع الانسان للقضاء والقدر

الفصل الثاني — في القانون الأدبي

(١) « الضمير »

قد ينصرف المرء الى اللهو واللعب ولا يلتفت لأعماله الاَّ اذا مست الحاجة ، ولا يؤدي ما يجب عليهِ لوالديهِ العاجزين عن الكسب ، الواجب عليهِ في كل الشرائع ان يموِّلها ويعاونهمـا على القيام باعباء الحياة ؛ ولا يجد من الحكومة ما يردعهُ عن اتباع هواه ، والاستسلام لعوامل الشهوات النفسانية . لأن ما أتاه لا يعدّ جرماً في نظرهـا ، لتمتعه بالحرية الشخصية ، وان استتبع ذلك سوء سمعته ، وانصراف اخلائه عن مساعدته . ولا يلبث ان يسمع صوتاً قلبياً يؤنبهُ على هذه الأعمال فيخضع له أي خضوع

ما هذا الصوت المحترم ! ما هذا الصوت المؤثر ، ما هذا الحاكم القاهر ؛ هو الذي يشرف على المرء في كل زمان ومكان ؛ هو الذي

يؤنب المجرمين بصوته الرنان ؛ هو هو الضمير . الضمير هو الحاكم الداخلي ، الذي يوبخ الجناة على ما يجترحون ، ويبشر الهداة بنتائج ما يعملون .

الضمير هو الذي دفع قابيل بعد قتله أخاه هابيل ، ان يردد (يا ويلتي ! أعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي!)

ما اشبه الضمائر الصحيحة بالكواكب المنيرة التي تنبعث اشعتها ؛ فتهدي اصحابها مناهج السداد ، وتصل بهم الى غاية المراد !

ان سلطان الضمائر فوق سلطان القوانين الوضعية ، وان افرغت الثانية في قوالب الشدة ؛ وان اصواتها فوق سائر الاصوات . قال ابو نواس :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

(٢) « المسئولية »

الاستاذ — يا بني ؛ انت سنك اثنتا عشرة سنة . فلمَ انت صغير ؟ هذا شيءٌ غير حسن !

التلميذ — يا سيدي ؛ ليس ذلك من أعمالي المبنية على ارادتي ، والاَّ كنت كبيراً مثلك .

الاستاذ — لِمَ اعتلت صحتك ، فمنعت النوم الليل كله ، وحرمت شهوة الاكل . اني لست مرتاحاً لذلك !

التلميذ — يا سيدي ليس في وسعي ان اكون على غير ما شهدت . وهل يستطيع المرء ان ينام ويأكل كما يريد ؟

الاستاذ – يا بني ؛ اني لحظت عليك الكسل في المدرسة أمس . فهل ذلك خارج عن ارادتك ايضاً ؟

التلميذ – لا يا سيدي ؛ ان الكسل من أعمالي المبنية على ارادتي ، ولذلك استميحك الصفح .

الاستاذ – قد صفحت عنك يا بني ؛ ولكن أود ان تجيب عما يلي : لِمَ لم تعارضني في نسبة الكسل اليك ، وقد صرحت قبلاً بان انحراف الصحة والصغر ، ليسا من أعمالك الخاصة بك ؛ ولِمَ رضيت بنسبة ذلك الفعل اليك ؛ ولم ترضَ بنسبة هذين الامرين ؟

التلميذ – يا سيدي ؛ ان أعمال الانسان متنوعة ، منها ما يصدر عن محض ارادتهِ كالكسل والاجتهاد ، والقيام والقعود ؛ ومنها ما يكون خارجاً عن ارادتهِ كالصغر ، والكبر ، والصحة ، والاعتلال .

الاستاذ – اذن انت غير مسئول عن كل ما يصدر منك !

التلميذ – لعل الاستاذ يشرح لي معنى مسئول .

الاستاذ – مسئول ، اي محاسب ؛ فأنت مسئول عن كسلك وتقصيرك في واجباتك (اي محاسب عليهِ) ولست بمسئول عن صغرك (اي لست محاسباً عليه) . أفهمت ،

التلميذ – نعم ، فهمت اني مسئول عن أعمالي الصادرة بمحض ارادتي

الاستاذ – هل اذا اجبرت على عمل يضاد ارادتك ، تكون مسئولاً ؟

التلميذ – لا يا سيدي ؛ فاذا انصرفت الى الاستحمام في النهر بارادتي ، اكون مسئولاً ؛ ولكن اذا زجني امرؤٌ فيهِ ، وحملني على ان

اغوص في الماء ، لا اكون مسئولاً ؛ لأن ذلك مخالف لارادتي .

الاستاذ — احسنت ؛ لأن العمل في الصورة الأولى صادر منك بارادتك ، وفي الثانية خارج عنها ؛ وقس على ذلك سائر اعمال الانسان ، ولذلك قيل : « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » . وعلى هذا المبدأ القويم ، جرت المحاكم في عقاب الجناة. فهي لا تعاقب المرء على فعله مجرداً ؛ ولكن تنظر الى ما يقارن او يفارق العمل من النية والارادة

فاذا صوَّب انسان بندقيته الى طائر ، فاصابت رجلاً كان وراء نخلة مثلاً ، فقضت عليهِ ، لا يعاقب عقاب الجاني الذي يترصد للمجني عليه ويقتله ؛ مع ان الجناية واحدة في الصورتين

وهذا المبدأ عام يشمل الخير ، كما يتناول الشر ؛ فالمرء قد يحسن ، ولا يستحق حسن الجزاء على احسانهِ . مثال ذلك . اني زرت آثاراً بمدينة (رومة) ؛ وبينا انا اغدو واروح مع احد الأولاد ، اذ سمعنا تنهداً وزفيراً ، فدنونا فوجدنا مسافراً ضالاً ، مشرفاً على الهلاك من الجوع والخوف ؛ فهديناه الطريق فنجا . فجزاء هذا الاحسان ، لا يعادل جزاء الرجل الشجاع الذي يخاطر بحياته ، ويزج بنفسه في الماء لينقذ آخر اوشك ان يغرق

وان ضمير الانسان الذي يرقبهُ في غدواتهِ وروحاته ، لا يؤاخذه الاّ على ما يصدر منهُ بارادتهِ . وحسبنا هذه القضية ، في اقناع الذين يزعمون ان الانسان غير حرّ

(٣) « القانون الأدبي او قانون الأخلاق »

لئن كنا احراراً فيما نفعل ، فانا تحت مراقبة ذلك الحاكم الداخلي ؛ ألا وهو الضمير . فالحرية ليست مطلقة .

الرجل المجرد من الضمير . يجري وراء الاهواء كما تشاء ؛ ولكن هيهات ان يوجد رجل مجرد من الضمير ، لأ نهُ من لوازم الطبيعة البشرية .

وليس الفارق بين الانسان وسائر انواع الحيوان ، قوَّة تمييز الحق من الباطل فقط ؛ ولكن قوة تمييز الخير من الشر ايضاً . وهذه القوة هي الضمير الذي يرقب حريتنا ، ويهديها سبيل الرشاد .

فهو شبيه بالقاضي ، الذي تنحصر اعماله في تطبيق القوانين على اعمال الناس ؛ ويمكن التعبير عنهُ بأنهُ قانون ، نحن خاضعون له .

ثم ليس المراد انهُ قانون مماثل لقوانين الطبيعة الثابتة التي اسلفنا الكلام عليها ؛ ولكنهُ قانون ادبي يستطيع الخاضع له ألاّ يطيعه . كالقوانين الوضعية التي تضعها الحكومات للفصل في الخصومات او (كأي نظام يراعيهِ الانسان او لا يراعيهِ)

والفرق بين هذا القانون وتلك القوانين ، يظهر من هذين المثالين : اذا ألقيت حصاة وقطعة خشب في الماء ؛ هوت الاولى في القاع ، وطفت الأخرى ؛ ولا يحدث غير ذلك على الدوام ، لأنهُ قانون طبيعي . واذا نبه الاستاذ تلميذين الى اداء واجب من الواجبات ، فلا يسوغ ان نحكم بأن التلميذين معاً يطيعان أمره . فقــد يطيعانه

ويعملان الواجب ؛ وقد يطيع احدهما ويهمل الثاني ؛ لأن الطاعة والمخالفة مبنيتان على استعدادهما ، لا على نفس أمر الأستاذ . وحينئذٍ يمكن ان يقال ان القانون الأدبي بمثابة المرشد الناصح ، وليس من لوازم المرشد اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

وبالاجمال ، أقول ان وظيفة الضمير ان يأمر بالخير ، وينهى عن الشر ؛ وليس فيهِ قوّة الاكراه على الفعل أو الترك .

والانسان مفطور على أن يرتاح اذا أصاخ لصوت ضميره ، وينقبض اذا خالفهُ ، ويشعر انهُ خالف النظام ، وأخلّ بالسلام العام ، ولا يدري من اين أتى ، ومتى يذهب . واليك شاهداً يوضح لك حالة الضمير في المواقف الصعبة ، وقوَّة تأثيره . قال جندي : بينما كنت أتروَّض على جسر نهر السين في يوم عاصف ، والنهر مائج ؛ اذ لمحت سفينة مشحونة رملاً اراد ملاَّحها اجتياز الجسر ، (الكوبري) فانكفأت بغتةً ، فحاول النجاة فلم يفلح . فاوحى اليَّ ضميري ، ان ألقي بنفسي في النهر لانجاء ذلك الغريق ؛ ولكن كهولتي صوَّرت لي المضارّ التي تنشأ من البرد القارس ، وداء المفاصل يلابسني ، وذكرت أيضاً انتفاء المعين وندرة المساعد ؛ ففترت عزيمتي وأخذت أقدم رجلاً ، وأؤخر أخرى ؛ ثم قهرت هذه الهواجس ، وعوَّلت على مساعدة الغريق . فخطر ببالي تارة أخرى ذلك الزمن الطويل الذي لازمتُ فيهِ فراشي وأنا مريض بداء (الروماتيزم) ؛ وانهُ كان من الواجب على السفِن أن يتقن السباحة ، وانهُ هو الذي جنى على نفسهِ ؛ وكدتُ أنقاد لهذه

العوامل وانصرف . فهمس الضمير في اذني بهذه الجملة المؤثرة : « انك جبان ! » . فاعترتني هزة بعثت بي الى ان ألقيت بنفسي في الماء ، وأنجيت الملاح بلا عناء .

الفصل الثالث — في الخير

(١) « شرف الانسانية »

قد ظهر لنا ان الانسان مخلوق ، حرّ ، عاقل ، مسئول عما يصدر عنهُ من الاعمال المبنية على ارادتهِ ، ممتاز بمواهب محترمة تكسبهُ شرفاً هو جدير ان يحتفظ به ؛ حتى لا يندمج في صفّ الكائنات الخاضعة لنواميس الطبيعة الثابتة . ولذلك كان أول أمر من أوامر القانون الأدبي ، أن يحترم الانسان في نفسهِ شرف الانسانية الذي يرجع الى ارادتهِ ؛ ولذلك ايضاً حظر عليهِ الرذائل ، وحثهُ على التمسك بالفضائل التي تغالب الشهوات النفسانية . وفضليات هذه الفضائل التي تصون شرف الانسانية ثلاث : الفطنة ، والاعتدال ، والشجاعة .

فالفطنة هي صفاء العقل ، وهي ضرورية لصحة ارادة الانسان ؛ لأن من لا يميز بين الحق والباطل ، يخشى عليهِ ألاّ يميز بين الخير والشر ؛ وان بعض الهفوات قد تمرّ بسهولة مع اعتيادها ، فتصير من اكبر الخطايا . ألا ترى تلك الاوهام المستولية على العقول — أوهام الاعتقاد بشؤم يوم الجمعة ، والعدد (١٣) ، ونعيق البومة — ما أقبح

هذه النزعات ! وأبشع هذه الخرافات ! التي لا يمحوها الاّ نور الفطنة ، وضياء الذكاء !

وللفطنة اسمان : التعقل والتسامح ؛ وهما مرتبتان لا يستحق المرء أن يدعي بدونهما انساناً ذكياً عاقلاً .

والاعتدال — كالتعقل — مزية من اشرف المزايا الانسانية ، وليس الغرض منهُ نظام الطعام والشراب ؛ ولكن الغرض منهُ التوسط في كل شيءٍ .

فليس الاعتـــدال ان يتصلف الرجل الذي أثرى ، (وقد نشأ فقيراً) على زملائهِ الذين لم ينجحوا مثله ؛ أو ان يحقد الرجل الفقير على جاره الغني ، ولا يرضى بما قسم الله له .

بل من الاعتدال أيضاً ، الاعتراف بالجميـــل وهو من أخص فضائله . لِمَ تعترف بجميل والديك ؟ لانهما سبب حياتك ونعمتك ؛ فمكافأتك لهما ، هو هذا الاعتراف . وكذلك الرجل المعتدل . يعترف بفضل العلماء ، والمفكرين ، والباحثين ، والمخترعين ؛ ولا يجحد لاحدهم فضلاً قلَّ او كثر ، الاّ دنيءٌ .

ما ظهر ذو رأي جديد في العلم أو الصناعة ، الاّ وجد أمامهُ كثيراً من الحاسدين والمبغضين ؛ فانكروا جميله ، وسفهوا آراءه ؛ فلما انقرضوا حكم التاريخ بسقوطهم ، ورفعهُ الى ذروة المجد الخالد .

حكي ان كرستوف كولومب ، بعد اكتشافه اميركا ، وعودته لاسبانيا ؛ احتفل بهِ الشعب على اختلاف الطبقات ، ولم يعقل ذلك الاحتفاء ألسنة الحساد والمكابرين ؛ بل انطلقت بالتنديد والتعريض ،

والسخرية والتسفيه . فنمي اليـه الخبر ، فلم يحفل بهِ ؛ بل دعاهم الى وليمة ، وأتى كل واحد منهم طبقاً وبيضة وقال : الحاذق منكم مَن يجعل بيضته تقف على طرفها ؛ فحاول كلٌّ ساعة ، فلما أعجزتهم حيلته ، أخذ هو واحدة وضربها بقوة فانكسر طرفها فاستقامت ؛ فصاح الكل : « ان كان كذلك ، فالأمر هين » فقال ولكن سبقت اليَّ الفكرة قبل أن ترد على بال أحدكم . وهكذا كان استكشافي لأمريكا .

وفضيلة الاعتراف بالجميل ، هي التي وقفت ببطرس الأكبر ، (قيصر الروس) على قبر ريشليو وزير الفرنسيس ليقول : ليتك حيٌّ فاعطيك نصف ممالكي ، لاتعلم منك كيف أسوس النصف الآخر .

(الشجاعة) وليس من الانسانية أن يجبن الانسان ، ويستسلم لما يعتريهِ أو يعتري مواليهِ ، أو معاشريهِ ، أو معاصريهِ من مصائب الحياة ؛ لأن الحيوانات والطيور ، تدافع عن أنفسها وعن ابنائها ؛ والانسان أولى منها بهذه الفضيلة .

وقد حكي ان ذئباً خاطر بنفسه ، لصيانة اولاده ، حتى اخترق الرصاص جسمه وهو ثابت لا يتحرك ، مخافة أن يزعج اولاده بأنينه وصياحه.

وقد قال شاعر فرنسوي ما معناه :

ويلاه ! تفكرت بالرغم مني في هذا الاسم العظيم ! (اسم الانسان) ولكني خجلتُ مما شاهدت من مظاهر الضعف في النوع البشري ؛

كيف لا وهذه معائبه التي تعرفينها أيتها الحيوانات الضارية

فالبكاء والعويل ، والأنين والتضرع ؛ كل ذلك من ضروب الجبن .

أيها الانسان ، اعمل عملك الشاق بقوّة حيث ناداك حظك ؛
مثل الذئب الذي تألم حتى مات ، ولم يبدِ صيحة ولا نبأة

قال شكسبير شاعر الانكليز : — يموت الجبان ألف مرّة ، والشجاع لا يموت غير مرّة واحدة

وأعلى مراتب الشجاعة ، الشجاعة الأدبية ؛ وهي قول الحقّ ، والسعي وراء الحق ؛ وبها يكون الانسان أميناً مخالفاً لهوى النفس ، شديد الحرص على واجباتهِ ، مهما كانت الحوادث التي تحيط بهِ .

الرجل اذا قوي ضميره ، ظهرت عليهِ علائم الشجاعة الأدبية ، وكان أحضر جناناً ، وأربط جأشاً في أعظم المواقف . حكي ان رجلاً من أهل دمشق سعي بهِ الى أبي جعفر المنصور ، أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية ؛ فأمر باحضاره الى بغداد ، فدخل عليهِ ، وكان المنصور شديد البطش ، سريع الغضب . فقال له : رُفع الينا خبر الودائع والاموال التي عندك لبني أمية ، فاخرجها لنا . فقال يا أمير المؤمنين ؛ أوارث أنت لبني أميــة ؟ قال لا . قال : أفأنتَ لهم وصي ؟ قال لا . قال : أثبتَ لك قضاء ذلك المال عندي ؟ قال لا . قال : اذاً فما سبب سؤالك عما في يدي من ذلك ؟ فأطرق المنصور هنيهة ثمَّ رفع رأسه متبسماً وقال لحاجبه الربيع ، اقضِ للرجل حاجته ثم ردّه لأهله .

(٢) « النزاهة وحبّ الذات »

ان الفضائل الثلاث التي شرحناها ، ليست كل ما يطلبهُ القانون

الأدبي ؛ لأنها تختصُّ بواجبات الانسان نحو نفسه .

والمحب لذاته لا تعوزه مزية من هذه المزايا . مع انهُ لا يكون مثال النزاهة والفضيلة ؛ لأنهُ وان احترم مواهبه البشرية ، نسي انهُ خلق اجتماعيًّا . والواجب أن يعمل الانسان في الحياة على هذا المبدأ الصحيح . — أبنائي ؛ تأملوا في هذا الفضاء ، تروا أن ليس الغرض من الحياة الحصول على مطالبنا دون سواها .

فما الأرض الاَّ نقطة في فضاء الله الواسع ، تدور حول الشمس كسائر الكواكب ؛ وكم كوكب يكوّن دنيا كهذه الدنيا ، ويدور حول كوكب آخر أعظم منهُ جرماً « ذلك تقدير العزيز العليم »

نحن وان كنا على الأرض لسنا لها بمالكين ؛ لأن حدوث اي غرق أو زلزال ، يدمر هذه الأمم اي تدمير .

واذا كانت هذه هي الحقيقة ، فكيف نعتقد ان الدنيا خلقت لنا وحدنا ، وننسى هذا النظام الإلهي .

نعم يجب علينا أن نعتقد ان الانسان لم يخلق منفرداً ؛ وان من المتعيّن عليهِ أن يشترك ، ويخلص لعائلته (اسرته) ووطنه وللانسانية والصالح العام ، مراعاة لذلك النظام الاجتماعي .

لما آلت الخلافة لسيدنا عمر ، رضي الله عنهُ ؛ أمر بعزل خالد بن الوليد ، وهو من كبار قوّاد الجيوش الاسلامية ، التي كانت مشتغلة يومئذٍ بالفتوحات الشامية ، لأسباب اقتضت ذلك ؛ فتقبل خالد أمر عزله بالرضوخ والاذعان ، وحارب جنديًّا كعامة الجند حتى تمَّ فتح

الشام . ففرح عمر بنصر الله ، ورضي عن خالد ، وأعاده الى القيادة ثانياً . فانظر كيف تجسمت النزاهة في نفس خالد ، حتى انهُ لم يرَ في عزله الأ حادثاً مألوفاً ، لم يثنهِ عن واجب الجهاد لاعلاء كلمة الله يوماً واحداً .

أبنائي ؛ ان مصلحة الفرد ، يجب أن تنعدم حيال مصلحة الامة ؛ وذلك هو السرّ في موت الجندي ، وقلبه يخفق سروراً ؛ لأنهُ يعلم انهُ يحيي بلاده بموته . وهو السرّ في أن يواسي الانسان الفقراء ، ويعلّم الجهلاء ، ويتسهل الصعاب في اكتشاف الحقائق التي ترقي العلم .

ان الانسان الذي يراعي المصلحة العامة ، أفضل ممن يحصر نفسه في دائرة منافعه الشخصية ، ولا يسمو بها الى مكان أعمّ وأشرف من هذه الدائرة . ان المحبة الذاتية ، ليست مقصورة على الاستئثار بالمنافع ، والاختصاص بالملاذّ ؛ ولكنها تصل بالانسان الى حد نسيان حقوق الاخرين ، مما ينافي الفضيلة ، ويضادّ الخير على خط مستقيم .

ان رعاية المصلحة العامة هي النزاهة ؛ والنزاهة فضيلة من عقائل الفضائل التي يجب على الانسان أن يتحلى بها ، وهي الآثار الممدوحة في الكتب السماوية ، والآثار الحكمية .

فكن نزيهاً ، ولا تكن محبًّا لنفسك ؛ واذا شرعتَ في فعل خير ، فانظر ماذا يصيب العالم أجمع من جرّاء امتناعك اذا اقتدى بك غيرك . . .

قال احد الفلاسفة « اعمل دائماً بحيث يكون عملك قدوة لأبناء جنسك » مثلاً : اذا مرَّ غلام في مزرعة فاعترضهُ صاحبها ، فأجاب

الغلام بأنهُ لم يتلف شيئاً ؛ فعارضهُ الزارع بقوله : واذا تركتك وشأنك ، ألا يعمل الناس مثلك ويقفون على أثرك .

وبهاتين القاعدتين : (الحرص على شرف الانسانية ، ورعاية المصلحة العامة) يحوز المرء شرف الكمال .

(٣) « خلود النفس »

الاستاذ — أتعرفون علم الحساب ؟

التلميـذ — نعم ، ونعرف قواعده .

الاستاذ — اين الحساب اذا لحظتم ان في وسعنا أن نحرق كتبه مع بقائهِ في أذهانكم ؟

التلميـذ -- اذن ، هو في رؤوسنا .

الاستاذ — نعم ، في رؤوسكم ، بل فِي أنفسكم .

الاستاذ — اذا لحظتم ذلك ، فأين الخير الذي يأمرنا بهِ القانون الأدبي حيثما أوليتم امرءًا معروفاً ماديًّا ، بأن أعطيتموه مالاً ؛ أو أدبياً ، بأن أنقذتموه من الغرق وهو مشرف عليهِ .

التلميـذ — هو في أنفسنا (قياساً على المثال السابق) .

الاستاذ — نعم ، في أنفسكم ، وذلك البُشر الذي يتألق في اسرّة وجوهكم ، ناشئ من السرور الذي كافأكم بهِ الضمير ؛ وهو منشأ شعوركم بكبر قيمتكم بما أضيف الى شخصيتكم من الكمال ، باستمراركم على اسداء المعروف ، وايلاء الجميل ؛ وهو منبع ما يلابس أجسامكم

من النشاط الذي يشابه نشاط الاجسام بالرياضة البدنية .

والخير لا تزول نتائجه بزوال الجسم ؛ وهذا الاعتقاد هو الذي يدفع الانسان الى الاحسان ، ولو تخيل انهُ مشرف على موت فجائي ؛ وهو الذي يحبب الى الجندي بذل روحه في خدمة وطنه .

نعم ، ان الاعتقاد بأن للارواح حيــاة باقية ، هو الذي يبعث بالمحسنين الى بذل أموالهم في سبيل البر ؛ وهو الذي يدفع دعاة الاصلاح وهداة الأمم ، الى استعذاب ما يقاسون من أنواع العذاب .

وليس من المعقول أن الاخيار والاشرار متساوون بعد مماتهم ؛ وان العمر الطويل الذي يقضيهِ صاحبــه في اسداء الخيرات وعمل المبرات ، يكون بلا نتيجة . واذا لم يكن من المعقول ذلك ، وجب أن نسلم بخلود الروح .

والخلاصة ان الخير كامن في النفس ، كمون النار في الزند ؛ وان النفس خالدة لا تفنى بفناء الجسم ، كما أجمعت عليهِ الشرائع السماوية كلها .

قال الامام الشيخ محمد عبده :

هذا الشعور العام بحياةٍ بعد هذه الحياة ، المنبث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيّها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ؛ لا يمكن أن يعد ضالة عقلية ، أو نزغة وهمية ؛ وانما هو من الالهامات التي اختص بها النوع الانساني . . . اه

واذا لحظنا ما أثبتناه ، من أن قواعد الحساب كامنة في النفس ، وانها كانت موجودة قبل اتصالهــا بالأذهان ؛ جاز أن نحكم — قياساً

على ذلك – ، ان الخير كامن في النفس ، وانهُ كائن قبل اتصاله بها ؛ وان هذه الصفات المحمودة التي تندرج في هذه الكلمة الطيبة ، – الخير – صفات شريفة ، لذات مقدسة مخالفة للحوادث ، متصفة بالوجود ، والقدم ، والبقاء ، وسائر صفات الكمال ، منزهة عن كل نقص وهي : « ذات الله سبحانهُ وتعالى »

الفصل الرابع — في الواجب

(١) « الواجب »

الواجب هو الشعور الذي يحمل الانسان على الانقيـاد للقانون الادبي ؛ وهو يأمرنا بما يأمرنا بهِ ذلك القانون ، من اجتناب الحرص على المنفعة الذاتية ، ومطاوعة الشهوات النفسية ، التي أخصها صفتا البغض والحب .

لأن البغض شعور دنيٌ سافل ، لا يخامر الاَّ ذوي النفوس الصغيرة ؛ واذن ، يجدر بنا ألاّ نسيءَ الى من أساء الينا ، وأن نعتبره من المنكودين الجديرين بالشفقة والاحسان .

الحب فطري في الأهل والأقارب والاحباء ؛ واذن ، لا يصح أن يكون هو قاعدة مبرَّاتنا ، ولا ان تكون مقصورة على هؤلاء ، لانسياقنا الى مواساتهم ، ومعاونتهم بالفطرة ؛ ولكن يجب أن تكون ميولنا شاملة الأقارب والاباعد ؛ وأن نساعد البؤساء ، وان كانوا بعداء ؛ وننقذ

من يقعون في مآزق الأخطار ، وان لم يكونوا من الأهل والأنصار

وعلينا بالاجمال أن نتحلى بالفضائل . ونتخلى عن الرذائل ؛ وأن نقرن أعمالنا بالنية المحمودة ، لأنها أساس الثواب والعقاب ؛ وألاّ نجعل المعروف ذريعة لنيل غرض من الاغراض ، لان ذلك يخرجهُ من دائرة الفضيلة ، وان لم يخرجه من دائرة الاعمال الرذيلة .

حكي أن تاجراً أصيب بحريق دمر له أموالاً عظيمة ؛ فاجتمع اخوانه من التجـار ، وأظهروا أسفهم وحزنهم على ما أصاب أخاهم بخطابات طويلة عريضة ؛ وكان كلٌّ يختم خطابه بقوله : اشارك أخي في مصابهِ العظيم . الى أن قام آخر وبيده كيس نقود وقال : اني اشارك أخي في مصابهِ العظيم بعشرة جنيهات ، ولفت نظره الى من بجواره وقال له : وأنت بكم تشاركهُ ؟ فقال بعشرة ، وفتح باب الاكتتاب ؛ فاجتمع له مبلغ عوَّض عليهِ ما اكلهُ الحريق. فزالت نكبة الرجل بالاشتراك الفعلي في مصابهِ « ولاخير في قول اذا لم يكن فعلاً»

(٢) « القانون الوضعي »

القانون الوضعي هو القانون الذي تضعهُ الحكومات ، ليكون أساساً للنظام الاداري ، وقاعدة لاستمتاع كل فرد من الافراد بحقوقهِ الفردية والاجتماعية ؛ وهو الذي ينهي الانسان (والا كان مسئولاً جنائياً أو مدنياً) عن كل قول أو عمل ينشأ عنهُ ضرر للفرد او الامة . وحينئذٍ ، يكون مغايراً للقانون الادبي ، الذي يحثّنا على التمسك بالفضيلة ليس الاّ .

ومن الواجب علينا ، أن نحترم القانون الوضعي ، باعتبار انهُ قانون عام ، انبنى على آراء اللجان التشريعية ، والمجالس النيابية ؛ وروعيَت فيهِ المصلحة العامة بقدر الامكان ؛ وليس لنا أن ننتقده ولو كان فيهِ ما يستوجب الانتقاد . لأن اباحة الانتقاد للافراد ، تستتبع تعدد الآراء لاختلاف النظر ؛ والتوفيق بين الآراء المتعددة من المستحيلات .

واذا فرضنا ، ان القوانين العادلة هي القوانين الصحيحة الجديرة بالاعتبار والاحترام ، فالواجب على كل وطني ، ان يعوّل على ضميره فيما يتعلق بحياتهِ الفردية ؛ وعلى القانون الوضعي في حياتهِ العمومية ؛ لأنا قضاة أنفسنا ، ولسنا قضاة الهيئة الاجتماعية .

فاحترام القوانين سياج الممالك الذي يصونها من الاختلال والانحلال ؛ وهو مبدأ العقلاء الذين يحبون الخير لبلادهم . واعتبر ذلك فيما حكي من انهُ كان في عاصمة اليونان (اثينا) منذ ألفين وثلاثمائة سنة ، حكيم اسمهُ (سقراط) انصرف الى تهذيب الشبان ، وحثهم على التمسك بمبادئهِ ؛ فوجد عليهِ فريق من معاشريهِ ، فأجمعوا كيدهم ابتغاء اهلاكه ، فتقوّلوا عليهِ ، وساقوه الى محكمة فاسدة ، فحكمت عليهِ. فانبرى فريق من أشياعهِ وأنصاره الموسرين ؛ ومهدوا له سبيل الفرار من السجن ، والتخلص من آلامهِ . فاستخفّ رأيهم ، فألحوا عليهِ ، فصاح فيهم قائلاً: «وقوانين الوطن» ، أيجمل بي أن أخالف القوانين وأنا أحق باتباعها واحترامهـا ؟ اني لأوقن اذا أجبت صوتكم ، ان

ضميري يوبخني توبيخاً شديداً ، ويناديني بهذه الجملة :

« أتخون بلادك يا سقراط ؟ »

لا ! لا ! ان موتي وأنا بريء مع احترام القوانين التي هي قوة الوطن وساعده ، خير مما زينتموه لي .

وليس القيام بالواجب منحصراً في اتباع القانون الوضعي ؛ بل الواجب اتباع القانون الادبي ايضاً . لان الاول كما تقدم ، لا يتعلق الا بمن ينشأ عنهُ ضرر للفرد او الجماعة . فالرجل الكسول الجبان الجاهل ، لا يمسهُ القانون الوضعي بأذى ، ولا يعاقبه الا ضميره . اي القانون الادبي الذي يحضنا على مراعاة الفضيلة في كل زمان ومكان ، ويأمرنا بالعمل في هذه الحياة المعتبرة ميداناً للمواهب الالهية .

(٣) « الأدب »

الاستاذ — أتعرف علم الأدب ؟

التلميذ — أسمع انهُ ينبهنا الى ما يجب فعله ، وما يجب تركه .

الاستاذ — نعم .

التلميذ — اذن ، لا داعي الى معرفة هذا العلم ، اكتفاء بضميرنا الذي يرشدنا الى الخير والشر ، والقانون الوضعي الذي يرقبنا عند فتور الضمير .

الاستاذ — هل تستطيع أن تورد مثالاً لذلك ؟

التلميذ — نعم ، كفأتُ المحبرة أمس ، فسال مدادها على بساط .

ولما شاهدتْ ذلك أمي ، استفهمت عمن كفأها ؛ فملت بادىء بدء الى الانكار ، واسناد ذلك الى الريح او الهرّة او أحد الخدمة . ولكنني لم أستطع ذلك ؛ بل أصغيت لضميري ، وجهرت بالحق بمجرد نظرها اليَّ

واذن ، يمكن الاستغناء عن دراسة علم الادب في سائر المسائل قياساً على هذه المسئلة (بالضمير والقانون الوضعي)

الاستاذ — يا بني ؛ هذا جواب صريح . ولكن — هل نما ضميرك الى هذا الحد ، بلا تعهد ولا تربية ؟

وهل تتخيل أن تكون ذا أخلاق فاضلة ومبادىء طيبة ، اذا نشأت بالاتفاق في صحراء ، ولم يتعهدك والداك ، او لم يدلك أحد على طرائق الخير والشرّ ؟ اذا صادفتَ أعمى مسكيناً في طريقـه ، وانشرح صدرك لاعطائه درهماً ممـا معك ؛ او اذا أُعطيت كعكة أقسامها غير متساوية ، فاقتصرت على تناول الجزء الاصغر — فما الذي دفعك الى الاحسان للاعمى في الصورة الاولى ، والى الاقتصار على الجزء الصغير في الصورة الثانية ، أيرجع ذلك الى الضمير وحده ؟ كلا ! . انمـا يرجع الى الضمير ، والى من ربّاك وهذّبك ، ونمى فيك هذه العواطف الشريفة ، وأرشدك الى أن الاحسان فضيلة ، والاقتصار على الجزء الاصغر فضيلة .

ومن ذلك تعلم يا بني ، ان الضمير وحده لا يكفي في الدلالة على الخير والشر ؛ وأن لا بدَّ من تهذيب النفوس ، وتقويم الاخلاق ، وتعويد المرء ملازمة الخير ومجانبـة الشر ، وهو عين علم الادب

وذلك هو الحكم في ارسال الرسل عليهم السلام . ولو كانت الضمائر وحدهـا كافية في الارشاد ، والحث على اتباع الاوامر ، واجتناب الزواجر ؛ ما بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين . وليس علم الادب من العلوم الصعبة المنال ، كالحساب والجبر والهندسة ونحوها ؛ ولكنهُ عبارة عن المبادئ الطيبة ، والتدرب على الاخذ بها في القول والعمل .

وهي كما تعـلم ، احترام الشرف الانساني ، وفضيلة النزاهة ، واحترام القوانين ، وحب الوطن وما أشبه ذلك . . .

والمعلم الاول لهذا العلم امك ، ثم أبوك ، ثم استاذك الذي يسند اليه اتمام تربيتك .

وكأنك يا بني اقتنعت بأن علم الادب مفيد ، وانهُ ليس من المستحسن ان يهمل الانسان فيشابه النبات الذي ينبت بالاتفاق في أي مكان ، ولا ينقل لارض خصبة ؛ وان هنالك فرقاً بين ثمر الشجرة البرية ، وثمر الشجرة المغروسة التي يتعهدها غارسها بوسائط النماء .

يا بني ؛ ان الاطفال الذين يعتنى بتربيتهم ، يحسن مآلهم ، ويجمل مستقبلهم ؛ كالاشجار التي يعتنى بها تثمر ثماراً طيبة .

واذا كانت قيمة الانسان بآدابهِ واخلاقهِ ، جاز أن نحكم بأن علم الادب من اخص العلوم التي ترفع قيمة الشخص في هذا العالم الانساني .

ما وهب الله لامرئ هبة أفضل من عقله ، ومن أدبه
هما حياة الفتى ؛ فان فقدا ففقده للحيـاة أليق به

الباب الثاني

(١) « الاسرة »

الانسان مدني بالطبع، لا يستطيع ان يعيش منفرداً، لعجزه عن القيام بجميع لوازم الحياة. واذا كان لا بد من اجتماعه بالآخرين، كان من واجبات القانون الادبي مراعاة حقوقهم.

واول دائرة من دوائر الاجتماع، هي الاسرة (العائلة) التي تتركب من الأب، والأم، واولادهما؛ وهي أضيق دوائر الجمعية البشرية التي تعمل في هذه الحياة على مبدأ التعاون والتناصر، وأبسط الجمعيات التي يتكوّن منها المجتمع الانساني.

والأسرة أثر من آثار النظام الطبيعي، بدليل وجودها في الحيوانات العجم؛ الاَّ ان وظائف أعضائها، تخالف وظائف أعضاء ما عداها من الأسر. فالطيور تغذي، وتدافع عن افراخها، والذكر لا يفارق أنثاه مدة الحضانة؛ وكلاهما لا يبعد عن وكره حتى تقتدر تلك الافراخ على الطيران، وتستقل بنفسها. ولكن ذلك كله، لا يعادل ما يعمله الأبوان في تربيتك بحرية، وشفقة، ومحبة. واذن يجب عليك أن تعرف ما لهما من الحقوق.

ورئيس الأسرة هو الأب ، وهو الذي تسمى باسمه ، وهو المسئول عن معيشة أعضائها وسيرتهم ، وهو الذي يعاهد زوجته على ان تكون شريكته في الحياة ، وان يساعدها و يرعاها وأولادها .

ما أشبه الأسرة بالجسم ، وما أشبه الأب بالرأس ! وليست واجبات الأب نحو ابنائه ، منحصرة في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ؛ ولكنها تتناول تهذيب طباعهم ، وتقويم أخلاقهم . واذا اقتضت الحال بُعده عن أسرتهِ ، عهد الى الأم في القيام بتلك الواجبات .

وأما الأم ، فوظيفتها من أشرف الوظائف ؛ لأنها هي التي تتعهد الابناء في أوَّل عهدهم ، وتتولى تربيتهم الجسمية والنفسية في حداثة سنهم ، وهي التي ترسخ تعاليمها في نفوس ابنائها رسوخ النقش في الحجر .

قيل ان ابراهيم لينكولن ، (Lincoln) رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، كان ابن رجل حطاب فقير ، وقد ترقى بجدّه واجتهاده الى أسمى مركز في الحكومة . قال للوفود الذين وفدوا عليهِ يهنئونهُ بمنصبه :

« لستُ احقّ بالمدح من والدتي التي أنا مدين لها بكل شيء »

نعم ان تعاليم الأمّ ترتسم في مخيلة الصغار ، ارتسام النقوش في الاحجار ؛ وهي أقدر على تهذيب الاطفال لمعرفة ما يطرأ عليهم في مختلف أطوارهم . ولذا كانت تربية البنات اساس ارتقاء الشعوب ، لأنهنَّ أعضاء المدرسة الاولى ، مدرسة المنزل التي لا تمحي آثارها على مرّ العصور .

وللأبوين كليهما رأي محترم في الاسرة . والأم تمتاز عن الأب

بزيادة الشفقة والاستعداد لتضحية راحتها وصحتها ، حرصاً على راحة ابنائها .

والأب يمتاز عنها بما له من السيطرة الطبيعية على اعضاء الاسرة ، حفظاً لكيانها ، وصيانة لنظامها .

ومن الواجب عليهم ، أن يمتثلوا أوامره ، ويحترموا آراءه ؛ وللأم الحق أيضاً في ابداء رأيها فيما يتعلق بشؤون الأسرة ؛ لأنها في مرتبة الأب ، ودرجتها الأدبية فوق سائر الدرجات .

والأم هي التي تمثل الارتباط المنزلي ، والمحبة العائلية ، والواجبات التي تربط الرجل بمنزله ، وهي التي تهيء أسباب السعادة والهناء .

والأب وكيل الهيئة الاجتماعية في اسرته ، وعليه اداء واجباتها التي ربما اختطفت احد ابنائه ، وهو قرير العين ، ناعم البال ، ليؤدي خدماً أوسع مجالاً وأسمى اعتباراً . وهو الذي يغرس في نفس ابنه هذا ، وجوب انتظامه في سلك الجند عند طلبه ، ليستعدّ للدفاع عن بلاده ، وليفهمهُ منذ نشأته انهُ ليس خصيصاً لأسرته ، وانّ من الواجب عليه أن يستعدّ لتضحية روحه ، اذا حلّ خطب بالحرية أو سلامة الوطن .

وهل أتاك حديث رواية هوراس ، (Horaces) تأليف الشهير كورنيل (Corneille) ؛ وخلاصتها أن روما والألب ، كانتا مدينتين عظيمتين ، وطالما تنازعتا المركز الأوّل بين سائر المدن ، فاتحدت الآراء محافظة على السلم ، أن يصارع ثلاثة من الالب ، ثلاثة من روما ؛

على ان يكون المركز الاول لمن يغلب مندوبها . فجرح في المناضلة الاولى مندوبو الألب الثلاثة ، وقتل اثنان من مندوبي روما وولى الثالث الادبار ، فصاح الرومان صيحة مؤثرة انتزعت قلوبهم من صدورهم . فاسرعت (چولي) احدى قريبات (هوراس) والد مندوبي رومة الثلاثة ، واخبرته بانهزام روما ونجاة ابنه الاصغر ، وتخيلت أنها حملت بشرى اليه . ولكن هوراس رأى ذلك خيانة من ابنهِ لوطنه ، وجهلاً بالدفاع عنهُ . فاجابت چولي بأن ابنه قاوم كل المقاومة ، واخواه حيان ؛ ولما أن رأى نفسه عاجزاً عن الدفاع امام الثلاثة الذين احاطوا بهِ احاطة السوار بالمعصم ، تخلص بالهرب ، واسترسلت في الدفاع عنهُ بقولها : وما الذي كان يفعله ازاء هؤلاء الخصوم الاشداء ؟ فاجابها هوراس بصوت جهوري : « كان يجب ان يموت ! »

فهذا الصوت الرهيب ، الذي انبعث من أب جعل محبة الاوطان فوق محبة الابناء ، كان له اعظم تأثير في نفوس السامعين الذين شاهدوا تمثيل هذه الرواية على أحد المراسح العمومية ؛ فاستغرقوا في البكاء زمناً طويلاً ولم تجف دموعهم ، حتى علموا ان (چولي) تعجلت باخبار (هوراس) بما يخالف الحقيقة ؛ وان ذلك الشاب احتال في قتل خصومه الثلاثة الذين اختلفت جراحاتهم ، بحملهم بهرب به على اقتفاء أثره واحداً واحداً ، وتمكنه من قتلهم على التعاقب ، والفوز بفخار الانتصار . وما أعظم سرور ذلك الشيخ الذي أصم أذنيهِ عن سماع دفاع (چولي) ، وأغمض عينيهِ لئلاّ يشاهد دموع تلك الباكية !

(٢) « واجبات الآباء للابناء »

« الاعتناء المادي »

أول الواجبات الأبوية ، العناية بتربية ابنائهم تربيــة جسمية . والآباء مدفوعون الى اداء هذا الواجب بعامل الحنان الفطري ؛ حتى الحيوانات العجم مطبوعة أيضاً على تعهد اولادها ، وهي سنة من السنن الإلهية التي اقتضاها عمران الكون . على ان نتائج الحيوانات ربما استطاعت الاستقلال ، والدفاع عن نفسها بعد بضعة أيام . أما الطفل ، فانهُ محتاج الى تعهده في جميع أطوار الطفولة .

ولا ريب ان الذي يؤدي جميع هذه الواجبات المتنوعة هي الأم ؛ فهي التي ترضعهُ وترعاه ، وتتولى نظافة جسمه وثيابه ؛ وهي التي تؤثر راحته على راحتها ، وتستسهل حمله على يدها ساعة وساعات .

وهي التي ينفطر قلبها وتنسكب دموعها ، اذا اعتراه مرض من الامراض . أما الأب ، فانهُ يصرف اوقاته في مباشرة اعماله التي يستمد منها ما يساعده على الحياة الطيبة ؛ وصلتهُ بالطفل منحصرة في عطفهِ عليهِ ، والقيام بشؤونه المادية .

ومن ذلك يؤخذ أن الطفل في عهد طفولته من اختصاص امه . وذلك هو السر في هذه الشفقه التي لا تحدّ ، وذلك الارتباط المتين الذي لا ينفصم .

فيأيُّها الابناء ؛ تصوَّروا على الدوام شفقة أمهاتكم ، وانعطافهنَّ

نحوكم ، وتعهدهن ايا كم في جميع احوالكم ؛ واعترفوا بفضلهن واحترموهن سرًّا وعلانية ، وسارعوا الى تحقيق مطالبهن . ان الذين يرعون حقوق أمهاتهم ولا ينسون فضلهن ، أولئك هم المفلحون .

وإذا شبَّ الطفل ، تجددت وتعددت واجبات أبيهِ له ، فمن ذلك ادخاله اياه المدرسة ، وتعهده بما يربي فيهِ الميول الطيبة والنظر في مستقبله ، واختيار ما يلائمهُ من الاعمال ، واعداده للحياة الاستقلالية ، حتى اذا مات أبوه استطاع الولد أن يعيش عيشة راضية . لأنا اذا فرضنا ان الطفل يخلف أباه الفلاح في مزرعتهِ ، فماذا يعمله اذا لم يكن أبوه كذلك .

فالواجب على الطفل أن يزاول أي عمل من الاعمال ؛ حتى اذا أدى واجب الخدمة العسكرية بمعونة والديهِ ، عاد واستمرَّ في عمله الى أن تتوفر لديهِ اسباب الحيــاة الهنيئة ، وهنالك يتسنى له ان يكافئ أبويهِ اللذين ربياه تربية صحيحة ، وأحسنا اليهِ — وهو في المهد — كل الاحسان . وأن يريهما من مظاهر الاخلاص ما يشرح صدرهما .

ما أجمل ذلك الحنوّ وأحلاه ! ان حنوّ الآباء ، واخلاص الابناء ، قوام السعادة البيتية

(الواجبات العقلية والأدبية)

من الواجبات الابوية ، تربية الابناء تربية عقلية ادبية أيضاً ؛ لأن الهيئة الاجتماعية تطالب الأبوين بذلك ، ليكونوا من أعضائهـا

الصحيحة . ولو كانت الواجبات الأبوية منحصرة في التربية الجسمية، لأشبه الانسان سائر الحيوانات التي تربي صغارها الى أن تشبّ فتتركها وشأنها .

ومبدأ هذه التربية دور التفاهم . وقد اعتاد الأبوان أن يعهدا الطفل الى امرأة جاهلة ، لا تبث في ذهنهِ الاَّ الخرافات ، ولا تلقي على مسمعهِ الا الترهات المتعلقة بالمشعوذين والشياطين ؛ فيشب الطفل على مبادئ فاسدة .

مع ان الواجب عليهما ألا يسندا تربية ابنائهما الاَّ الى مربيات قادرات على غرس المبادئ الصحيحة ؛ وعليهما أن ينبها الطفل في حداثة عهده الى أن ما نشاهده في هذا الكون من النظام العجيب ، انما هو نتيجة جريهِ على نواميس طبيعية صحيحة ، ولا بدَّ ان يكون له منظم عظيم ، هو الله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ؛ قياساً على ان هذه المصنوعات المحسوسة لم توجد بنفسها .

وعليهما ان يعوّداه احترام الحقائق التي قررها العلماء ، ويرشداه الى فوائد العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء ، وتاريخ طبيعي ، وتاريخ بشري ، ورياضة واقتصاد سياسي ، وأدب وغير ذلك بحالة تناسب استعداده وادراكه .

وعليهما أن يغرسا في نفسهِ حب الوطن ، ويعلماه ما يجب عليهِ له ويفهماه ما له وما عليهِ من الحقوق الاجتماعية . كل ذلك في اول نشأته ليمتزج بلحمه ودمه .

واذا جاء دور التعليم ، وجب على الأب ان يعلّم ابنه في المدرسة تعليماً صحيحاً ؛ ولو كان محتاجاً الى مساعدتهِ في أعماله اليومية ، أو كانت الأم محتاجة لمساعدة ابنتها في التدبير المنزلي . لأن ذلك لا يدفع مذمة التقصير .

والواجب عليهما ان يعتقدا ان لا حق لهما في حرمان ابنائهما نعمة التعليم المفيد ، وهل يرضى الأب أن يشبّ ابنه جاهلاً عاجزاً عن الجولان في ميدان الحياة ، فيعيش عيشة الجهلاء المنكودين الذين لا يفطنون لخداع من يحاولون الاستفادة من جهالتهم .

من العادات المضرَّة أن يحرم الأب ابنه التربية رغبة ان يستعين بهِ في أعماله ، أو ان يعهد تعليمه الى أيّ صانع ليجتني ثمرة غرسه في المستقبل القريب. والواجب عليهِ أن يعلّمهُ تعليماً مفيداً ، ليحيا حياة طيبة ، وليدرك معاني ما يشاهد من التقدُّم في جميع الطبقات وجميع الصنائع .

عرفتُ فلاَّحين كانا متجاورين ، وكان لكل منهما ابن ، وليس لأحدهما ثروة تساعدهُ على تعليم ابنهِ تعليماً صحيحاً . فعمد أحدهما الى ابنهِ وأخرجهُ من المدرسة ابتغاء ان يعاونهُ في أعماله الزراعية قبل ان يتقن القراءة والكتابة ؛ فكانت النتيجة ان نسي ما تعلمهُ ، وان عكف على اللهو واللعب في أوقات الفراغ ، حتى حان ميعاد العسكرية فقضى مدته بين اهانة وعقاب ، لعدم استعداده لاداء واجباته بشكل يُرضي . وعاد الى أمهِ التي فقدت زوجها اثناء غيابه ؛ فأخذا يعملان بأجر زهيد ، وعاشا في عسر وعناء ، ولم يتسنَّ له أن يقترن باحدى

الفتيات لاعراضهنَّ عنهُ لسوء حالته (بعد كبره) .

أما الآخر ، فقد أمهل ابنه في المدرسة الى ان ناهز الرابعة عشرة . ولما انتظم في سلك الجند ، أدَّى واجباته بعناية ونشاط ؛ فترقى الى رتبة ملازم ومال الى الاستمرار ، فحاز رتبة عالية ، كما حاز وساماً على أثر جرحه في احدى الوقائع الحربيـة ؛ وعاد بعد ذلك الى أبيهِ وله معاش غير يسير ، وله سيرة مرضية دفعت تاجراً كان قريباً من منزله الى أن يتخذه كاتبه . ثم اقترن باحدى الفتيات المهذَّبات ، وعاش عيشة السعداء ، واستعدَّ لأن يعاون أبويهِ عنـد عجزهما عن فلاحة الأرض . أليس ذلك دليلاً كافياً على فضل التعليم ؟

والواجب على الأب أيضاً ، أن يحبب الى ابنـهِ كل فضيلة ، ويبغّض عليهِ كل رذيلة ؛ وان يعوّده على تنظيم العادات ، واحترام نفسه ومعاشريهِ .

وحسب الأب الذي يقصر في تربية ابنـائه ، أن يكون له في الجمعية البشرية أبناء أشرار .

طلب رجل من (ارستيب) الفيلسوف اليوناني ، أن يربي له ابناً ؛ فطلب الفيلسوف مبلغاً ثقل على الرجل فقال له : يمكنني أن أشتري بهذا المبلغ عبداً . فقال نعم ، فيكون عندك عبدان !

وحسب الأب الذي يعنى بابنائه ، ان يكون له في المجتمع الانساني ابناء أبرار ، لهم مكانة شماء في نفوس معاشريهم .

حكي ان فتى تكلم بين يدي المأمون فأحسن في القول . فقال

له : ابن من أنت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين . فقال : نعم النسب انتسبت اليهِ .

ولقي هارون الرشيد عليّ بن حمزة الشهير بالكسائي إمام النحاة في عصره . فوقف بموكبه وتلطف في السؤال عن حاله ، وكان احتجب لمرض فقال : أنا بخير يا أمير المؤمنين . ولو لم يكن من ثمرة الأدب غير ما وهب الله تعالى له من وقوف أمير المؤمنين لكفى ، ودعا له بالخير .

وليس الغرض أن يكتفي الأب بتلقين ابنائه المبادئ الطيبة ؛ بل الواجب ان يكون لهم قدوة حسنة ، يعطيهم دروساً عملية تهذيبية بأعماله . لأن الاطفال مطبوعون على التقليد ، ولا يتصوَّرون الاّ الكمال في آبائهم ؛ فيندفعون بعامل فطري الى محاكاتهم .

وقد حكي ان زعيم عصابة من اللصوص في آخر القرن الماضي ، في جزيرة صقلّية ، اصبح ذا ثروة طائلة يسرت له أن يعيش عيشة رخاء في منزله الذي لم يستطع احد الاهتداء اليهِ ؛ لأنهُ في قمة جبل شامخ . وانهُ لما مال ميزان حياته ، كفر عن سيئاتهِ بالانابة والطاعة ؛ ولكنهُ كان على الدوام في كدر عظيم لاعتقاده ان ابنه ريحانة فؤاده ، وموضع آماله ، سيقفو على أثره ، ويكون من الاشرار . وقد رسخ في نفسهِ هذا الاعتقاد بما استنتجهُ من هذه الحادثة ، اذ ضلَّ فلاح في الجبل يوماً ، بعد ان اصطاد حيواناً لذلك الزعيم ؛ فلقيهُ ابنه وأسره لمعاقبتهِ على جراءته . وما تنفس الصبح حتى أقبل ابن الفلاح يستعطف الزعيم ، ويرجو أن يحله محل أبيهِ ، وان يقتص منـهُ بعد كما يشاء ،

لشيخوخة أبيهِ ، وعجزه عن احتمال العقاب ، وقال غير ذلك ؛ مما حمل الزعيم على أن يقارن بين هذه الحالة وبين حالة ابنه الذي همَّ بقتله منذ أيام ، فسأل الفلاح عما اتخذه من الوسائط في تربية ابنه هذه التربيــة التي وضعتهُ في صفّ الاتقياء الذين يعرفون حقوق الآباء . فأجابهُ الفلاح بأنهُ كان صالحاً فاقتدى بهِ ابنه . وهنالك أدرك الزعيم ، أن ابنــه سيكون من الاشرار ؛ لأنهُ هو كان من الاشرار الفجار « ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده »

(٣) « السلطة الأبوية »

الاستاذ — ؟ لِمَ تطيع والديك اذا أوصياك أن تتقن أعمالك المدرسية ، وتحترم معلميك ، وتراعي الآداب مع الاجانب ، وتعامل اخوانك بالوداعة ولين الجانب ، وتعطف على البؤساء ، وتحسن الى الفقراء وغير ذلك من مكارم الاخلاق ؟

ولمَ تطيعهما اذا أرشداك الى مجانبة الضوضاء في الفصل ، والكذب ، وايذاء زملائك ، والاعراض عما ليس لك ، وغير ذلك من الصفات المرذولة ؟

التلميذ — لأني اعتقد ان وصايا الأبوين ، انما ترجع الى الخير الذي يحثني على عمله الضمير .

الاستاذ — نعم ؛ ولمَ تطيعهما اذا أمراك أن تعمل عملاً مباحاً ، كأن أمرك أبوك ان توصل خطاباً الى مكتب البريد ، أو أمرتك أمك

أن ترقب المنزل اثناء غيابها عنهُ حتى تعود ؛ أفتطيعهما لأن في قدرتهما أن يعاقباك ويطرداك ، كما يعاقبان ويطردان الخدمة الذين لا يفعلون ما يؤمرون .

التلميذ – كلا ؟ ان طاعتي اياهما مبنية على انهما سبب وجودي في هذه الحياة ، وان لهما الفضل العظيم في تربيتي تربية جسمية وعقلية .

الاستاذ – قد أصبتَ يا بنيَّ ؛ لأن من الواجب على الطفل أن يخضع ارادته لارادة والديه ؛ وان يعرف ان حياته مرتبطة بحياتهما ، ارتباط حياة الفرع بحياة الأصل الذي ينبت بجانبه ؛ وان يراعي ذلك الشعور الشريف الذي يدفعهما الى تعهده ، والمبادرة الى اجابة مطالبه . وتلك هي الشفقة الوافرة التي يمثلانها أجمل تمثيل اذا صادفتهُ شائبة من الشوائب ؛ وان يستحضر في ذهنهِ على الدوام ، ان ليس في معاشريه من يحبّ لهُ الخير والسعادة حبًّا صحيحاً الاَّ أبواه اللذان يسعدان بسعادته ، ويشقيان بشقاوته .

يجب على الولد ان يفهم كل هذه المعاني ؛ وان يطيعهما اطاعة جسمية وقلبية ؛ وان يخلص لهما في السرّ والعلن ؛ وان يعمل بنصائحهما وان يعتقد كل الاعتقاد ان الفوز والفلاح في امتثال أوامرهما ، والخيبة والخسران في مخالفتهما .

ولقد رأيت ولداً يتراوح سنه بين عشر سنوات ، واثنتي عشرة سنة ؛ خرج وقت الأصيل رغبة أن يلعب مع رفقائهِ في المرج ، وخالف امه التى أمرتهُ أن يأخذ رداءه مخافة البرد . فكانت النتيجة

أنهُ مرض بعد ثلاثة ايام ، وكاد يذهب فريسة الحمى . . ؛ ولما ناهز الثالثة عشرة من عمره ، خالف أيضاً أباه الذي أراد أن يخلفه في عمله ، وسافر الى باريس ابتغاء ان يمارس صناعة أرفع من صناعة أبيهِ ؛ فباء بعد ثلاث سنين بالخيبة ، وقد أضوتهُ العلل والامراض ، وأصبح محتاجاً أولاً لاكتساب الصحة التي توقف عليها شروعه في عمل من الاعمال . هذه نتيجة مخالفة الوالدين ، والاستخفاف بنصائحهما . فيا أيها الابناء ؛ اتبعوا اوامر والديكم ، واجتنبوا نواهيهم ، واصغوا لنصائحهم ، ولا تستخفوا بآرائهم تفوزوا فوزاً عظيماً .

ولقد كان الاب معتبراً في شريعة اليونان والرومان ، (منذ ألفي سنة) كالمالك المطلق لابنه ؛ ولذلك كان له الحق ان يعاقبهُ بالسجن والضرب اذا وجد انهُ غير مستقيم ، وانهُ لا يستحقّ التحلي باسم اسرته ؛ بل كان له الحق بقتله في احوال مخصوصة . من ذلك ان القائد الروماني مانلينس (Manlins) حكم على ابنهِ بالاعدام ، لأنهُ حارب العدوّ وخالف أمر أبيهِ ، ولم يشفع لهُ انتصاره عليهِ ؛ وان القنصل الروماني بريتيس (Brutus) حكم على ابنهِ بالقتل، لأنهُ خان الوطن . وقد صدر الحكم من الأول باعتباره قائداً. ومن الثاني باعتباره حاكماً . أما في هذا العهد ، فللأب ان يعاقب ابنه بما لا يفضي الى اتلاف عضو من أعضائهِ ؛ ولهُ ان يزجهُ في سجن الأحداث وان يحبسهُ اذا لم يمتثل ، وله وحده ان يقوّم اعوجاجه

والقانون الفرنسوي يعترف بالسلطة الابوية في احوال كثيرة أخرى .

فالوطني في الحادية والعشرين يكون حراً في اعماله ؛ ولكن ليس له ان يتزوج ، قبل ان يناهز الخامسة والعشرين ، الاَّ بموافقة ابيهِ . فاذا ما تجاوز هذا الحد ، فلا يخضع لأبيهِ بواسطة القانون الوضعي او الشرطة ؛ بل بشعوره النفسي الذي يصور له ما بينه و بين ابيهِ من العلائق المحترمة ، وما عليهِ له من الحقوق المقدسة التي لا يدركها تمام الادراك الا اذا صار رجلاً كاملاً .

(٤) « احترام الوالدين »

من الابناء مَن يخالف والديهِ ولا يحترم رأيهما ، وهو مخطئ في ذلك خطأً عظيماً . . . لأنهُ فضلاً عن استظلاله بظلهما ، واستمتاعهِ بنعمهما ؛ لا يدرك ادراكهما ، ولم يكتسب من التجارب ما اكتسبا . فالواجب اذن على الابناء ؛ أن يطيعوا والديهم ظاهراً وباطناً ، طاعة صادرة عن شعور صحيح ، مقرونة بالمحبة والاحترام . ان احترام الوالدين أول شعور ينبعث في القلب الطاهر . هل تعرف حقيقة الاحترام ؟ متى أقبل الليل وآنست ضياء الكواكب المنثور عقدها فوق رأسك التي تخرق حجاب الظلمة ، كأنهـا عيون ترقبك من الملأ الأعلى ؛ ومتى ساد السكون على الارض وهدأ الكون ؛ ألا تشعر بأن رعدة أخذتك . واذا فكرت في الحياة الباقية المتعلقة بهذه الافلاك ، المعتبر كل منهـا شمساً ؛ ألا ترى نفسك صغيراً في نهاية صغرك ، متأثراً بهذه المناظر العديدة ؛ ألا تقرّ بقدرة الموجد لهذه العجائب ؛ ألا

تكون على أهبـة الركوع على ركبتيك وعيونك مستعبرة ، خاشعاً متصدعاً من خشية الله ؟ هذا الاحترام هو الاحترام الديني بمعناه الأدبي .

ومتى رأيت شيخاً يكسوه الوقار وتعلوه المهـابة ، وعلى صدره الوسام الأحمر ، عنوان الشرف ؛ وقيل لك هذا جندي جرح في حرب في سبيل الدفاع عن بلاده ؛ او هـذا طبيب يخاطر بنفسهِ في الوباء رغبة ان ينقذ ابناء جنسهِ ؛ وعلمت ان حياة ذلك الرجل موقوفة على اسداء المبرات لبني الانسان ؛ ورأيته محفوفاً بصنوف التجلة والاحترام . أما تندفع بعامل نفسيّ الى احترامه والوقوف حتى يمرّ ذلك الوطني ؟ هـذا الاحترام ايضاً هو (احترام ادبي) ، يبعثه في النفس منظر الفضيلة . وقد قال الفيلسوف كانتْ (Kant) : « شيئان يملآن النفس احتراماً واعجاباً ، منظر السماء ذات البروج ، والحنو الأدبي الذي يملأ النفوس سروراً »

فالاحترام الواجب لوالديك ، هو الاحترام البنوي ؛ فاحمل هذين الشعورين لأبيك وامك ، لأنهما أحق بمراعاة واجب الله نحوهما . لأنهما سبب الحياة ، فاكرامهما أوكد وأوجب من اكرام ذلك الجندي وذلك الطبيب ، لأنهما ضحيا أنفسهما اكثر من ذلك .

ان الأم التي لا تخشى المرض في العناية بولدها ، وان الأب الذي يشتغل طول حياتهِ محبة ان يدخر لابنـائهِ ما يرفّه عيشهما ، لأحق بالاحترام والاجلال من كل فرد سواه ، ولو كان جاهلاً ؛ لأن قيمتهُ

ازاءك ليست مرتبطة بالعلم ، ولكنهـا مرتبطة بالعناية العظيمة التي شملك بها .

ان الابناء الذين يقابلون – بعد يسارهم — آباءهم الشيوخ ، الذين ربوهم وأبلغوهم الى هذا الحد ، بالاساءة والاستنكار ؛ هم الابناء اللؤماء الجبناء الذين يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون .

أما الابناء الفضلاء ؛ فانهم (وان علت أقدارهم وارتفع شأنهم) لا يخجلون من وكرهم الاول الذي درجوا منـهُ ؛ بل يكون قاعدة فخرهم وحجة نبوغهم يعودون الى والديهم ؛ يحملون اكاليل الشرف الاسنى التي حصلوا عليها ، فيصبح ذلك العش عامراً بالفضل ، وقد خلت منه القصور الشاهقات .

(٥) « الاعتراف بجميل الوالدين »

اذا دعاك جارك للتجوال في مزرعتهِ وأهداك من ثمارها ؛ وجب أن تشكر له حسن صنعه . واذا اعتاد ان يتحفك بالهدايا ؛ وجب ان تعترف له بالجميـل ؛ وان تعتبره ذا حق عليك ، وان توجب على نفسك اداء مطالبه ، وان تخدمهُ ولو بمنع رفاقك عن رمي الأشجار المثمرة بالاحجار ؛ والاَّ اعتبرت في نظر العقـلاء منكراً للجميل . وانكار الجميل من الصفات المرذولة التي يجب على الانسان أن يتطهر منها . نعم ؛ لأن من الواجب على المرء ان يقابل الجميل بالجميل ، وان يعتبر نفسه مديناً لمن يسدي اليهِ معروفاً

فاذا فرضنا ان حسيناً (مثلاً) التاجر ، أعماله ليست منتظمة ، وان عليه ديوناً طائلة ، وانهُ اذا لم يدركَ بالمساعدة وقع في شدة . . . وفرضنا ان له صديقاً اسمه (علي) ، أقرضه الف دينـــار وأنجاه من تلك الشدة . فالواجب على حسين في هذه الصورة ، ليس منحصراً في اداء الف الدينار ؛ بل الواجب عليه ان يساعد صديقه علياً ايضاً ، اذا صادف ما يستوجب المساعدة ؛ والا كان منكراً للجميل ، آثماً في نظر القانون الأدبي ، مجرماً ولصاً امام القانون الوضعي ، اذا توقف في ايفاء ذلك المقدار .

واذا كان من الواجب الاعتراف بالجميـــل ، ومجازاة الاحسان بالاحسان ؛ فاجدر بالانسان ان يقابل بالاحسان احسان والديه اللذين تركا له ثمرة اقتصادهما ، وخلاصة أعمالهما في حياتهما ؛ وان يتذكر لهما فضلهما في تربيته الجسمية والنفسية ، وارشاده الى مصاحبة الفضيلة ، ومجانبة الرذيلة ؛ وان يلهج على الدوام بحمدهما والثناء عليهما ؛ وألا يتأثر منهما اذا رمياه بكلمة قاسية . وليت شعري ، ما مقدار هذه الكلمة في جانب هذه الفواضل الجزيلة ، التي أفاضاها عليه في أدوار حياته .

ان الولد الذي لا يعترف بواجبات والديه ، ولا يندفع بشعوره الى ادائها ؛ لا يرجى منهُ خيرٌ للوطن ، ولا الهيئة الاجتماعية وهل يتصور ان يكون أي انسان عادلاً ، أو نافعاً ، اذا لم يكن عادلاً نحو أمه وأبيه ؟

والطاعة ، والاحترام ، والاعتراف بالجميل ؛ كل ذلك يجب ان

يكون مقروناً بالمحبة القلبية ؛ على ان هذه المحبة فطرية ، تتوقف على ارادة الانسان . لأن الولد – وان لم يشعر في دور الطفولة بأنهُ منجذب بميل طبيعي الى ذينك الثغرين الباسمين ، المملوءين عطفاً وحناناً — لا ريب أن يشعر بذلك اذا شبَّ . وكلما نما ، ازداد ادراكه بمقدار ما أولي من الاحسان ؛ حتى اذا بلغ أشدّه ، تحوّلت محبته لأهله شفقة على ابنائهِ ؛ فيعمل لسعادتهم ، كما كان آباؤه يعملون لسعادتهِ .

(٦) « واجبات الأولاد نحو أنفسهم »

الاستاذ — ألك اخوة يا حسن ؟

التلميـذ — نعم ؛ لي اخ يناهز التاسعة عشرة ، وقد انتظم في سلك البحريين المشاة هذا العـام . ولي أيضاً اخت سنّها ست سنوات ، وستدخل المدرسة في العام المقبل .

الاستاذ — أتحبهما ؟

التلميـذ — نعم ؛ أحبهما حبًّا جمًّا .

الاستاذ — ولِمَ يا بني ؟

التلميـذ — يا سيدي ؛ هل الاخوة يتباغضون ؟

الاستاذ — نعم ؛ في الاخوة من يتجرَّد من العواطف الشريفة ، فيكون الى الوحش أقرب منهُ الى الانسان ؛ وهل تعرف منشأ تحابّ الاخوة ؟

التلميذ – لا أستطيع ان أشرح ذلك شرحاً وافياً ، وربما كان

السبب انهم من اسرة واحدة .

الاستاذ — لعلك تريد انهم ولدوا من أب واحد ، وأم واحدة ، وانهم بذلك يشابهون فروع الشجرة الواحدة ، وان ذلك يستتبع توادّهم وائتلافهم .

نعم ؛ ولكن ليس ذلك كلّ السبب ، لأن هناك رابطة قوية أخرى ؛ هي الرابطة القلبية المبنية على ان كلا الاخوين ، كجزء من دم الوالدين . فهي أساس ما نشاهد من تحاب الاخوة وتعاطفهم ؛ وهي مرجع ما يكون من تشابههم في الوجوه والطباع .

وقد تختلف ميولهم فيتنافرون ؛ لأن اتحاد الافراد في شعورهم نحو شيء من الاشياء ، يستتبع توادّهم والعكس بالعكس .

على ان هناك داعياً آخر لوداد الاخوة ، وهو مراعاة احساس والديهم اللذين يحزنهما تنافر أبنائهما .

التلميذ — يا سيدي ؛ غاب عنا شيء .

الاستاذ — ما هو ؟

التلميذ — لمَ لا تكون القرابة وحدها ، كافية لاتحاد ابناء الاسرة الواحدة في المشارب والميول ، لضرورة ان المخالطة والمعاشرة تستوجب ذلك ؟

الاستاذ — هلاَّ أوردتَ مثلاً أوضح ؟

التلميذ — اذا دخل الانسان المدرسة ، شاهد من البنين والبنات من لم يرتبط بهم قبلاً ؛ ولا يلبث قليلاً ، حتى ينجذب اليهم بمغناطيس

المعاشرة ، ويرتبط بهم كل الارتبـاط ، فيداعبهم ويفاكهم ؛ فيتعاطفون ويتزاورون . واذا كان ذلك نتيجة هذه المصاحبة الموجزة ، فما أحرى ان تكون المخالطة الدائمة ، والمعاشرة المستمرة ، داعية لتوكيد روابط الالفة بين الاخوة .

وكيف يرتبط الانسان بالاجنبي ، برابطة المحبة ؛ ولا يرتبط بهذه الرابطة بأخيه .

الاستاذ – ما أقوى برهانك يا بني ! وهل تحب أخاك الاكبر ، واختك الصغرى بمقدار واحد ؟

التلميذ – كلاً ! أنا اصغي لصوت أخي الاكبر وسني اثنتا عشرة سنة ؛ وأفعل ما يأمرني بهِ ، وعندي له شيءٌ من شعور الاحترام الذي أحمله لأبي وأمي ؛ على أن اتناسي بهِ ، اكثر من اتناسي بوالدي . فقد أقص عليه ما أفعل وما اشاهد ، واطلعهُ على أحوالي ، واخبره باخباري المدرسية ، وأتلقى بالبشر نصائحه المفيدة . وأنا بالنسبة لأختي الصغرى مثله بالنسبة لي . فاذا عهدت أمي اليَّ ان اروضها توخيت اسباب رضائها وسرورهـا ، ووضعت نفسي موضع أبي العطوف ازاءها . وهكذا يجب على الاخوة والاخوات ان يتآلفوا ويتعاطفوا ، ويتعانوا على حسب استعدادهم وأعمارهم . فالكبار يعطفون على الصغار ، ويعاملونهم بالشفقـة والرحمة ، ويتولون تربيتهم وتهذيبهم عند ممات والديهم ؛ وعلى الصغار ان يقابلوا ذلك بالشكر والمحبة

والاحترام وهل في الكبار من يختص بالرئاسة بعد أبيه ، و يستأثر بالثروة يا سيدي ؟

الاستاذ — نعم يا بني ؛ ولكن ذلك ظلم مبين . والواجب على الأب ان يوزع على بنيه ثروتهُ بالعدل ، سواءٌ كانت موروثة او مكتسبة بكده وعمله . والواجب على دعاة المساواة بين النـاس في المجتمع نساني ، ان يطلبوا تساوي افراد الاسرة

يجب على كبير الاسرة ان يسهر على صغارها ، و ينجيهم من الاخطار المحدقة بهم ، و يسعى بالاجمال لسعادتهم في الحال والاستقبال. وهنالك عبارة تتضمن معاني شتى مرتبطة بما رددتهُ على سمعك ، لرجل لبث في السجن سنين عديدة وهو بريءٌ . وقد عرَّفه سجنه قيمـة الاسرة التي حرمها (نحن أبناء أب واحد ، وأم واحدة ، وقد اتحدنا في الدم ، وتشابهنا في كثير من العادات ، فلِمَ لا نتآلف ونتعاطف)

كن كريماً في علائقك الاخوية ؛ واذا اقترف أحـدهم ذنباً ، فقابله بالصفح والعطف ؛ وما أحرى أن تكون شفقتك على اخوتك ، أوفر من شفقتك على الاجنبي . ان مخالطتك اخوتك لا تنافي ما يجب عليك من مراعاة الآداب معهم . فواظب على تعزيتهم وتسليتهم في أحزانهم ، وأحسن معاملتهم . ان الذين لا يعاملون اخوتهم معاملة حسنة ، اولئك هم القاسون .

(٧) « واجبات الاطفال في المدرسة »

ليس في وسع الآباء ان يتعهدوا أبناءهم بالتربية العقلية الى ان يكونوا رجالاً عاملين في مجال الحياة ؛ ولذلك يدخلونهم المدرسة .

وما هي المدرسة ؟

أهي المحل المقدَّس الذي يستفيد الانسان فيهِ ما يرقيه ؟ أهي محل تعليم القراءة ، والكتابة ، والحساب ونحو ذلك ؟ نعم ؛ ولكن يجب تصويرها بأنها مطلع شمس الفضيلة ، ومشرق نور العرفان ، والمعهد العظيم الذي يعتبر المنزل ركناً من أركانهِ ؛ والذي تشرف فيهِ عناية المربين على الناشئين ، اشراف عناية آبائهم وأمهاتهم المربيين الاولين. هي المعهد الذي يعهد الأب فيهِ الى المعلم تربية ابنه وتهذيبهُ على قاعدة انهُ نائب عنهُ ؛ مما يجعل للابناء على المعلمين حقوقاً محترمة ، ويجعل لهؤلاء على الابناء حقوق الآباء المقدسة .

هي المعهد الذي يجتمع فيهِ الناشئون أشرف اجتماع ؛ فيمثلون الاخوة . تشملهم دار واحدة ، كأسرة واحدة .

ومن أخص واجبات المدرسة ، ان تهيئ الناشئ لأن يكون من رجال الغد الفضلاء الذين لا يجهلون ما يجب عليهم نحو أوطانهم . لأن المعلّم نائب عن الأب في تربية عواطف الشرف في الطفل ، نائب في العدل ، نائب في الحرية .

وليس من المعقول ان تتكل المدرسة على تربية البيوت ، او

تأبى ان تلقي الدروس التهذيبية على التلاميذ الذين سيسند اليهم في الغد جلائل الاعمال .

وعلى المعلم ان يراعي استعداد التلاميذ ، وأخلاقهم وميولهم ؛ وان يعاملهم معاملة حسنة على قاعدة العدل والمساواة ؛ وان يتذكر على الدوام انهم ودائع الآباء ، وان الودائع جديرة بالصيانة ، خليقة بالاحتفاظ . وعليهِ أن يرفق بهم ، وان يلحظ ان تقرير السلطة الأبوية ، مبني على وجوب استعمالها بالحكمة والاعتدال .

فاذا كان للمعلمين من السلطة ما للآباء ، باعتبار انهم وكلاء ؛ فالواجب عليهم ان يتصرَّفوا فيها تصرُّفاً محموداً .

وعلى المعلم ان يجمع الى التربية العلمية ، التربية الاخلاقية ؛ وان يعتقد ان الاقتصار على الأولى ، ليس كل الواجب .

نعم ؛ عليهِ ان يغرس في نفوسهم المبادئ الشريفة من حبّ الوطن واحترامهِ ، وحبّ العائلة واحترامها ، ونحو ذلك مما يحقق رغائب آبائهم الذين وكلوا اليهِ أمر تربيتهم .

ان العلم أقوى مربٍّ للشبيبة الوطنية . فاذا راعى السادة المعلمون هذه المبادئ القويمة ، فلا ريب ان تصل مصر الى ما ترمي اليه في المستقبل القريب .

وليس على التلاميذ للمعلم واجب الطاعة فقط ؛ بل عليهم ان يحترموه ويخلصوا له ، احترامهم واخلاصهم لآبائهم .

وليت شعري أيها التلاميذ ، مَن أحقُّ بالاحترام والاخلاص من

رجل وقف حياتهُ على تهذيبكم ، واعدادكم للدخول في مصاف الرجال.

مَن أولى بالمحبة من ذلك الرجل الذي يكاشفكم بأسرار الحياة ، فتأمنوا مواقع الزلل — من المتعسر ان يتعلم الانسان بلا مدرسة — فما أشقى امرأً مرت عليهِ دوائر السنين ، ولم يسترشد بعلم ؛ فهو في الاقامة غريب ، وفي الاسفار ضال ؛ يدفعهُ جهله الى الاستفهام عن الطريق ، ويضعهُ موضع الاستخفاف والازدراء . واذا اقتضته الحال مكاتبة أهله البعيدين عنهُ ، استعان بأحد المتعلمين .

والخلاصة ، ان الرجل الواجب احترامه احترام الآباء ، هو المعلم . (فالمعلم أب ثان) وعلى الامة أيضاً أن تلحظ ما يقوم بهِ المعلمون من تقوية مدارك الناشئين ، وتهذيب نفوسهم ؛ فتحترمهم وتؤدي لهم حقوقهم .

فلا تكونوا أيها الابناء كالحمقى الذين ينكرون فضل المعلمين ، ويعصون أوامرهم ؛ أو الكسالى الذين يستمرئون البلادة ، ولا يبالون ما ينالهم من العقاب الحالي ؛ على ان عقابهم الدائم جهلهم المضل .

ألا وان السنوات الاربع التي تقضيها أيها التلميذ في التعليم الأدبي ؛ لا تكفي لاعدادك للعمل في دائرة الحياة . والواجب أن تقضي الثلاث العشرة المقبلة في تعلم صناعة ، أو مزاولة تجارة ، أو نحو ذلك .

واذا لم تستفد من زمنك في المدرسة ، فستكبر وتبقى مدة عمرك غريقاً في بحر الجهالة .

واذا كانت المدرسة كالأسرة ، فما أوجب ان تعامل رفقاءك التلاميذ معاملة الاخوة. فلئن لم تربطك بهم رابطة القرابة، فان بينك وبينهم من روابط الجنسية والوطنية والمعاشرة، ما يستوجب ذلك .

وما أجدر ان تلازم الآداب من الصدق ، ولين الجانب ، والعدل والإباء ؛ وتجانب النقائص ، من الكذب والحسد ، والعداء وتهييج الخواطر

ومن الواجب ان تتقن عملك ، وتقبل على دروسك كل الاقبال ؛ وان تزاول الالعاب الرياضية عقب الفراغ من أعمالك المدرسية ، لما فيها من تجديد النشاط ، وتقوية العضلات . واذا اعتدى أحدكم على آخر ، فاصلحوا بينهما بالعدل ، واحرصوا على توكيد الروابط وتوثيق العلائق « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

(٨) « الخدم »

تشاهد أيها الطفل ، في مجموع الأسرة افراداً غير أبيك وأمك، واخوتك واخواتك . هؤلاء هم الخدم ، الذين يستخدمهم الابوان لمساعدة الأم في التدبير المنزلي ، أو الأب في أعماله الخارجية المتنوعة .

وكانت هذه الاعمال في سالف الزمن، (في دولة الرومان واليونان) من أعمال الأرقاء الذين كانوا يملكون بالشراء . وكان من لوازم ذلك ، ان يكون ابناؤهم ملكاً لسادتهم الذين كانوا يحنون أو يقسون عليهم بحسب غرائزهم . ولذلك قيل ان رومانياً من ذوي الجاه ، كان يقوت

نوعاً من السمك بجثث العبيد عند بلوغهم سن الشيخوخة ، او عند مرضهم وعدم الانتفـاع بهم . ولكن بظهور الدين المسيحي في تلك البـلاد ، ألغيت العبودية ، أو خفت وطأتهـا . وكانت في المستعمرات الفرنسوية الى أن ألغتها قوانين الشورى الكبرى . وقد استدرك احد نواب الأمة ، عند المناقشة في هذه المسئلة ان ملاَّك الاراضي بالمستعمرات ، فقدوا كل عمالهم ، وان ثروتهم اشرفت على الضياع . فأجابهُ عضو آخر .

« ان ضياع المستعمرات بأسرها ، خير من بقاء هذا المبدأ »

اما في هذا العصر ، فقد حرم بيع الرقيق ، وهو مبدأ الأمم المتمدنة ؛ وفي مقدمتهنَّ مصر التي من مبادئها اعتبار كل من وطئ أرضها حرًّا ، والاستعداد لحمايتهِ بقوتها وقضائها .

فليس في الوقت الحاضر من يشبه اولئك العبيد . ذلك لأن الخدم ، انمـا يخدمون من يريدون بارادتهم ، ويبقون أو ينفصلون بحسب رغبتهم ؛ فهم يشابهون العمال الذين يعملون في احد المعامل بأجر معلوم ، مع التمتع بحريتهم ، وعدم مطاوعة مخدوميهم ، فيما يخرج عن دائرة الخدمة .

والخدمة هم الذين وضعوا أنفسهم تحت سلطة مخدوميهم بارادتهم؛ فكأنهم تعاقدوا معهم ، على ان يكون الأجر من جانب المخدمين ؛ والطاعة والاخلاص والاحترام ، من جانبهم .

وحينئذٍ ؛ يجب عليهم ان يطيعوهم ، وان يذكروا ان اتصالهم

بالبيوت ، لا ينحصر في استحقاق اجورهم ؛ بل يجعل لهم فيها مراكز مخصوصة . فيكون لهم ما لها ، وعليهم ما عليها . وذلك يستوجب ان يتحدوا مع مخدوميهم في الشعور ؛ وان يخلصوا لهم اخلاصهم لآبائهم ، وبذلك ترتفع قيمتهم في نظر معاشريهم . وفي كل عام يمنح مجمع العلماء الفرنسوي ، جوائز الفضيلة مَن يستحقونها من الخدم وغيرهم .

واليك تاريخ خادمة أمينة ، منحها ذلك المجمع جائزة الفضيلة في سنة ١٨٣٧ :

كان لرجل خياط ابنة اسمها چستين ، (Justine) اضطرت وهي في سن العشرين لخدمة سيدة في مدينة فرساي (Versailles) ؛ وكان لهذه السيدة بنت .

فانضمت چستين اليهنَّ وتولينَ جميعاً العناية بشأنها ؛ وبعد قليل اضطرها المرض الى ان تسافر مع بنتها الى باريس ، فتبعتهما چستين ، فسكنَّ غرفة تناسب اعسارهنَّ ، واشتغلنَ جميعاً بالتطريز ، وكانت چستين تلاحظ ما كانتا فيـهِ من العز والمجد ، وما آل اليهِ أمرهما من العسر والشدة ؛ فتنبعث بعواطف شريفة الى الاحتفاء بهما ، وتدبير شؤونهما ؛ كما كانت تعطيهمـا ما تكسبه بعد اشتغالها عند مطرز آخر زاد في أجرها . وما زالت مواظبة على العناية بهمـا ، والاعتصام بحبل ولائهما ، وهي تشعر ان سعادتها في ارتياحهما ، ولو أفضى الى مواصلتها العمل ليلها بنهارها . حتى لقد أعرضت عما عرض لها من العمل المفيد ، والزوج السعيد ؛ مما دفع السيدة الى ان تحبب

اليها قبول هذا وذاك . نعم ؛ أعرضت چستين ، وأعلنت لسيدتها ان حياتها مرتبطة بحياتهما ؛ وان حظَّها متعلق بحظهما . وان من الواجب عليها ، ان تقاسمهما ما يعانيان من متاعب الحياة ؛ الى غير ذلك مما مثَّل اخلاصها أجمل تمثيل . وفي سنة ١٨١٦ اعترى سيدتهـا داء عياء ، لزمها ستة أشهر ، عانت فيها ما عانت من الآلام ؛ ومع ذلك لم ينطفئ شعور چستين الشريف ؛ بل كانت تعمل في النهار ابتغاء ان تكسب ما يساعدها على مواساة سيدتها ، وتتولى في الليل رعايتها ، على نحو ما يشاء الحبّ والإخلاص . واستمرَّت على ذلك الى أن توفيت تلك السيدة ، فتولت رعاية بنتهـا ، وقامت بجميع حاجاتها . هذا الاحساس الشريف ، بعث بالسيدة في حياتها ، الى ان تذيع فضل هذه الخادمة ، وتعترف بفضلها ، ممـا لفت نظر المجمع العلمي اليها ، ودفعهُ الى اجازتها . واذا كان على الخدم واجبات للأولاد ، فان على هؤلاء أيضاً لهم واجبات . فلا يجوز للأبناء ان يتصوَّروا انهم مخلوقات أحط منهم ، أو أن يستعبدوهم لأنهم وضعوا أنفسهم للخدمة لا للاسترقاق ؛ وعليهم ايضاً ألا يخالطوهم الاَّ بقدر الحاجة ، لئلا تسري طباعهم اليهم .

(٩) « الحيوانات »

تشترك مع الانسان في هذه الحيـاة مخلوقات أصغر منهُ شأناً ؛ ولكن لها مراكز عظيمة في المنـازل والمزارع : وهي الحيوانات ،

واكثرها اختلاطاً بهِ الكلب والهر اللذان يندمجان في العائلات ؛ فيكادان يعدّان منها . وقد اعتاد الابناء ان يعذّبوا الحيوانات ، وهي رذيلة من الرذائل ، لما فيها من الظلم ، وتدريب الحيوانات على الايذاء لأن الهرّ الذي يستفزُّه الطفل ، ربما ضربه ، ففقأ عينيهِ ؛ والكلب الذي يهيجهُ ، ربما أصبح عقوراً .

واذا كان لنا ان ننتفع بالحيوانات ، فليس لنا ان نعذّبها ، لنا ان نستعمل الثيران في الحرث ، والخيل والبغال والحمير للركوب والزينة وهلمّ جرًّا ؛ وليس لنا غير ذلك .

من الصعب ان نميت الحيوانات ؛ ولكن اذا كان ذلك داعياً لخير ، جاز كما جاز ذبح الخروف لوقاية آكليه من الموت ؛ لانهم ارقى منه في هذا الكون . وذلك لا ينافي ما يجب من الاشفاق عليها ، والعناية بشأنها ؛ لانها وان كانت مخلوقات اصغر شأناً من الانسان الكامل ، فليست اصغر من الانسان الفاسق . وهو ما أجاب به الفيلسوف لافونتين ، زعمـاء ديكارت — فيلسوف القرن السابع عشر — الذي كان يعتبر الحيوانات آلات مجردة من الاحساس.

والقانون المصري يحمي الحيوانات ، ولا يعتبرها مجرّد آلات ، بدليل انهُ يحظر على الفلاح أن يقسو على دوابهِ .

والخلاصة ان للشخص ان يتصرّف في حيواناته ؛ ولكن ليس له ان يعذّبها ، أو يعذب غيرها ، مما لا علاقة له بهـا ؛ ولأي فرد

الحق فيأن يلفت نظر الشرطة ، اذا وقعت بمرأى منهُ قسوة من أحد الافراد على أي حيوان .

من الرذائل أن يهـدم الصبيان أعشاش الطيور ، أو يكسروا بيضها ؛ وليس سبب ذلك ان الطيور لا تؤذينا — ومن اللائق ألاَّ نؤذيها — بل لانها تأكل كثيراً من الحشرات الضارة أيضاً .

في انجلترا ، أمر جاك الثاني أن تجمع العصافير ، ووضع لذلك الجوائز ؛ فخلت الجزيرة منها في زمن قريب . فكثرت الحشرات ، وترتب على ذلك تلف الزروع . فاضطرت الحكومة لالغاء هذا المبدأ ، واستنهضت الجمهور الى جمع العصافير ، فكانوا يشترونها بأثمان غالية .

حكي أن فيكتور هوجو الشاعر الفرنسوي العظيم ، رأى ضفدعة قبيحة المنظر ، مغطاة بالاوساخ ، تستنشق الهواء ذات ليلة على قارعة الطريق ؛ ورأى أربعة تلاميذ يطاردونها ويؤذونها ، ويحاولون قتلها . فنطق بهذه الجملة المؤثرة « ما أقسى الطفولة »

(١٠) « روح الأسرة »

أفضنا الكلام في موضوع الأسرة ، وابنَّا ما يتعلق بالأب والأم ، والاولاد والخدم ، وسائر من يرتبطون بالطفل في المنزل والمدرسة .

ومن الواجب أن نشرح ما يتعلق بالابوين الابعدين وهما : الجد والجدة ؛ من وجوب احترامهما ، والخضوع لهما ، ووضعهما

موضع الأبوين الاقربين ، ومعاملتهما بالشفقة والرأفة المقرونة بالاحترام ، لشيخوختهما وضعفهما .

ومن الواجب اعتبار العم والعمة ، بمنزلة الاب والام ، وابنــاء و بنات العم والاصهار ، بمثابة الاخوة والاخوات . لان اسم الأسرة يتناول هؤلاء ، واحترام مدلول هذا الاسم من الاحساسات الطاهرة . وطالما بعث تذكره الابناء الى اجتناب المساوئ ، خشية أن يدنسوه ؛ لانه يخصهم ولا يتناول غيرهم . فشرف اسم البيت ، يشابه الوديعة التي يجب على الابناء صيانتها ؛ كما تركها الآباء مصونة

ومن الواجب على الانسان ، أن يراعي ما بينه وبين هؤلاء الافراد من الروابط الجديرة بالاحترام ؛ وان يعتبر افراد العائلة ، أمثال فروع الشجرة التي تتعاون على حياة المجموع – وان مال كل فرع منها الى جهة من الجهات – ؛ وان يعتقد كل الاعتقاد ان السعادة في الاتحاد ، وان التفرق مدعاة للضعف والانحلال ؛ وان يتذكر ما قاله الحكيم فرنكلين : (Franklin) « يجب على الاخوة أن يتعاونوا ويتناصروا » . وقد حكي أن تجار البقول كانوا يمرون بجمالهم وعليها بضائع متنوعة ، فاشترى امرؤ (فأساً) من هؤلاء التجار بثمن غال ، لعدم وجود مثلها لديه . فاستعارها أحد اخوته ، فأبى ؛ فاستعارها الثاني فأبى أيضاً ؛ فاستعارها الثالث ، وتوسل اليه بما بينهما من المحبة ؛ فأبى أيضاً — مما دفع اخوتهُ الى شراء أمثالها — وبينا هو يقطع خشباً على حافة نهر ، اذ سقطت الفأس في النهر ولم يعثر عليها ؛ فأقبل على أحد

اخوته يستعير (فأسه). فذكره بإبائه وأعرض عنه . فأقبل على أخ آخر ، فنبهه ايضاً الى إبائه ، واتبع ذلك بهذه الجملة « لئن أبيت أن تعيرني فأسك قبلاً فاني اريد أن اكون أحسن منك مبدأ » فخجل كل الخجل ، ولم يأخذ الفأس وانطلق يرجو أخاً آخر ، وعلائم الكدر بادية في وجهه ؛ فأشفق عليه ، وأبلغهُ ان فأسه تكفيهما . فأخذ يبكي ويعانقهُ ويقول : « أخي ان مروءتك عظيمة ، وانك لسليم الطوية ، لأنك نسيت اساءتي ؛ فأنت أخي حقاً ، ولك أن تركن اليَّ » فأجابه أخوه : « نعم أنا أحبك ، ومن الواجب أن نحب اخوتنا الآخرين ، لأنا جميعاً من دم واحد »

فمحبة الاسرة يجب أن تكون اول شعور لك بعد المحبة البنوية ؛ فهي التي تربي فيك قوة الاخلاص للوطن الذي لا يخرج عن كونهِ اسرة كبيرة . وما أجدرنا أن نسمع ما قاله المسيو برسو (Mr. Bersot) أحد الرجال الذين أحبوا الشبيبة الفرنسوية ، الخليق ان يكتب اسمه في صدر كل كتاب تربية ، في محاضرة بين ولد وجده :

الجد — ما الذي خدشك في وجهك يا بنيّ ؟

الولد — الهرّ يا جدي .

الجد — هل للهرّ يدان ؟ يجب ان تعترف

الولد — تضاربتُ مع آخر .

الجد — ولِمَ ذلك . هل اغتصب منك شيئاً ؟

الولد — كلا ! ولكنهُ سبّ والدي ، فألقيتــهُ على الأرض ، فاعترف بكذبه .

الجد — انك لشجاع . ولكن ، ألا يوجد غير أبيك أحد تدافع عنــهُ ؟

الولد — بلى ! أمي ، وجدتي وأنت ، وأخي الاكبر .

الجد — اذن أنت تحبنا .

الولد — نعم ! لانكم آبائي .

الجد — اذن ، سررت لأني تعينت عمدة .

الولد — نعم ! سررت وزدت فخراً ، وفي ذلك اليوم ، حفظت دروسي اي حفظ ، وأديت واجباتي خير اداء .

الجد — هل اعتقدت أنك عينت عمدة ؟

الولد — نعم .

الجد — ما الذي خامرك ، حين عُيّن أخوك ملاحظاً ؟

الولد — سررت وكنت أودّ أن ألبس شارات السرور والفخار .

الجد — اذنْ ، أنت عمــدة وضابط . ولِمَ نظرتك حزيناً عند مرض أمك ؟

الولد — نعم ! تألمت تألماً شديداً ، لأني تخيلت انها ستموت مثل جارتنا التي نحترمها !

الجد — انك لولد صالح ، وأخ مخلص . اني أراك تروض اختك، بدلاً من ان تلعب مع رفاقك ؛ وتلاعبها فتجد منك أخاً محموداً .

ولكن ، يخيل لي انك تحب شجرة الكرز .

الولد – شجرة الكرز شجرتنا ، واذا صعدت عليها أتخيل اني في منزلنـا .

الجد – أجد انك تسرّ بالمعيشة معنا ، اكثر من معيشتك مع جيرانك ، وانك لا ترى نفسك في صحة الاّ معنا .

الولد – نعم .

الجد – يا بني ؛ اذا عاش الناس معاً وتحابّوا ، وشعروا بالسعادة حينما ينالهم خير ، وبالتعاسة حينما يصيبهم شرّ ؛ وأصبح كل فرد منهم مستعدًّا للمساعدة عند الحاجة ، والمواساة عند حصول الاذى ؛ محبًّا لأن يناله الألم ولا ينالهم ، متحداً معهم قلباً وقالباً . فهذه هي الأسرة .

ان العلائق لا تكون وثيقة   في الاقربين وسائر الأحياء
الاّ بتعظيم الصغير كبيره   وعنـاية الآباء بالابنـاء





الباب الأول

الهيئة الاجتماعية

الفصل الاول — فضل الجمعيات

التلميذ — يا سيدي الاستاذ ! طالما سمعتُ ألفاظاً لم أفقه لها معنى ، وما كنتُ اكلف نفسي مشقة البحث فيها ، لاعتقادي أن الصغير لا يمكن ان يجاري الكبير في ادراكه . أما وقد أصبحت من تلاميذ السنة الرابعة ، وكثيراً ما حدثتمونا عن « الهيئة الاجتماعية » ، التي يجب أن نكون أعضاء نافعين فيها ؛ « والنظام الاجتماعي » ، الذي ينبغي أن نحترمهُ ؛ « والرقي الاجتماعي » الذي يلزم ان نضرب فيهِ بسهم — فقل لي بحقك يا سيدي الاستاذ ، ما معنى هذه الالفاظ التي أرى من الواجب عليَّ ان أقف على كنهها ، لأكون على بينة من أمرها ؟

الاستاذ — أنتَ تعلم يا بني ، ان « الاسرة » تتركب عادة من أب وأم ، واخوة واخوات ، وجدٍ وجدّة الخ . . وكلهم يسعون وراء غرض واحد ، هو سعادتها ؛ لذلك كان لكل فرد منهم نصيب خاص في العمل . ففي بلاد الريف ، يختص بعضهم بحرث الأرض وبذرها ، وحصد زرعها ؛ وينفرد البعض الاخر ، بتعهد الماشية ، ورعي الأغنام وما أشبه ذلك ؛ وغيرهم بحلب الألبان وصنع الزبد ، وتربية الطيور وهكذا (تحت نظر الأبوين اللذين هما ربّا المنزل) .

ومجموع هؤلاء الافراد الذين تتركب منهم الأسرة ، « يسمى هيئة اجتماعية » أو جمعية . والقاعدة التي يسير عليها أولئك الافراد من حيث تقسيم الاعمال ، ومزاولتها في أوقات معينة ، وعدم مزاحمة بعضهم البعض في العمل ، يسمى « بالنظام الاجتماعي » ؛ والتحسينات التي يمكن ادخالها على الادارة المنزلية ، من نحو توزيع الاعمال ، ومعاونة العمال ، والاجتهاد في انماء الثروة ، يسمى « بالرقي الاجتماعي » . فمعنى اجتماعي اذاً ، هو كل ما كان متعلقاً بالهيئة الاجتماعية .

التلميذ — اذاً ، فالأسرة هي عبارة عن « جمعية » !

الاستاذ — نعم ؛ وهي أول الجمعيات ونموذج الباقي . فماذا اذاً تعبر عن لفظة « جمعية » ، اذا سئلت عن ذلك ؟

التلميذ — الجمعية حينئذٍ ، هي مجموع جملة اشخاص يعيشون معاً ، ويشتغلون كل من جهة لغرض مخصوص . أليس كذلك ؟

الاستاذ — حسن ! ولكنك سوف تضطر الى تغيير هذا التعبير ،

اذا ما علمت ان الجمعيات على أنواع كثيرة ، وان الاسرة ليست الاّ احدى تلك الجمعيات .

التلميذ — انني لا أظن ذلك يا استاذي ؛ لأنهُ اذا قيل مثلاً : ان الانسان يجب عليهِ ان يكون عضواً نافعاً في الهيئة الاجتماعية ؛ فلا يمكن ان يفهم من ذلك ، أن الاسرة هي المقصودة بذلك القول .

الاستاذ — لقد قلت صواباً ، فلنستمرّ في بحثنا اذاً .

تعلم يا ولدي العزيز ، ان هذه « القرية » تحتوي على كثير من الأسر ؛ يعيش كل منها على انفراد ، ويشتغل افرادها فيما يوافق ميولهم ؛ وكلهم ما بين زارع وصانع ، وتاجر ومالك ، وغني وفقير . تجمعهم — وان فرقتهم أعمالهم الخصوصية — المنفعة العمومية .

التلميذ — وما معنى ذلك يا سيدي الاستاذ ؟

الاستاذ — لنفرض ان الحال اقتضت بناء دار للبلدية ، او انشاء قنطرة ، او فتح طريق عمومي ، او ما أشبه ذلك . فمن ذا الذي يقوم بما يلزم من النفقات ، هل يكلف بهِ شخص معين ؟

التلميذ — كلا ! بل يكلف بهِ الجمهور !

الاستاذ — نعم ؛ وهذا معناه اجتماع الاهالي على عمل ما ، يعود على الجميع بالفائدة او المنفعة ؛ وكلهم وان افترقوا وراء منافعهم الذاتية ، يجتمعون اذا ما دعتهم الضرورة الى منفعة عمومية . اذ لو اقتصر كل فرد منهم على مباشرة شؤون اسرته دون غيرها ، لوقفت حركة الاعمال .

لذلك جرت العادة في الممالك المتمدينة ، ان يجتمع اهالي القرية

في أيام معلومات ، لينتخبوا من بينهم أشخاصاً ذوي مقدرة وخبرة بادارة الشؤون العموميـة . وهذه الجمعية التي تتشكل بهذه الصورة على مقتضى اللوائح والقوانين ، تسمى (مجلساً بلدياً) ؛ يعين من بين أعضائه شخص يعهد اليهِ بادارة حركة الاعمال العمومية ، ويقال له (رئيس المجلس) . وليس من الضروري يا بني ان يعيش أعضاء هذا المجلس في مكان واحد ، او ان يكون بينهم روابط شخصية ؛ بل يكفي أن يكون من الممكن اجتماعهم لتقرير ما يكون لازماً للمنافع العمومية وقت الاحتياج ، وهذا هو نوع آخر من الجمعيات .

التلميـذ — ثم ماذا ايضاً ؟

الاستاذ — كثير يا بني : فالمديرية مثلاً — وقد تحتوي على جملة بلدان — لها مجتمع خاص يقـال له (مجلس المديرية) ؛ وجميع المديريات لها مجتمع آخر يدعى (الجمعية العموميـة) وهكذا . . . فكل جماعة من الناس يتبادلون المنافع والاعمال ، يمكن أن يطلق عليهم (هيئة اجتماعية) ، الا ان هذا الاسم قد امتاز بهِ على الخصوص شيئان خطيران ، هما : (الوطن والجنس البشري) ، لذلك يقال : « كن نافعاً في الهيئة الاجتماعية » اي « اخدم بلدك وشرف بني الانسان »

التلميذ — لقد فهمت . يا سيدي ان الوطن عبارة عن (هيئة اجتماعية) ، مؤلفة من جميع اسرات القرى والمدن التي تقطنها أمة واحدة مشتركة المنافع والأعمال ؛ يشكل لادارتها مجالس تختص بانشاء الطرقات العموميـة ، والمدارس والجسور وتعبئة الجيوش ، وتعيين

الموظفين والمستخدمين والقضـاة وغير ذلك ، على حساب جميع السكان ؛ اذ أن تلك الامور لم تكن الاَّ لمنفعة الجميع على السواء . الا انني لم أفهم مع ذلك — ما معنى الانسانية ، وما دخلها في الهيئة الاجتماعية ، ولا ما هي علاقتي بساكن بلاد اليابان أو الصين مثلاً ، وأي رابطة بيني وبين زنوج امريكا ، وكيف يمكن ان أشترك مع هؤلاء في فائدة او أتبادل معهم منفعة ؟

الاستاذ – هذا ما كنت أنتظر أن تسألنيه يا بني . اعلم وفقك الله ان المرافق المتبادلة بين الامم ، ليست هي التي تربط اعضاء الهيئة الاجتماعية بعضهم ببعض ، ولا المنفعـة هي التي تربط أفراد العائلة الواحدة كذلك ؛ بل الذي يربط بعضهم ببعض ، انما هي المحبـة والاخلاص وسائر العواطف .

لذلك ترى ابناء البلد الواحد متحابين ، لارتباطهم بمحبة بلدهم الذي ولدوا ونشأوا فيهِ ، وتربوا تحت سمائه ، وتغذوا من نباتهِ ومائهِ ؛ وكلهم يفتخرون بسعادتهِ ، ويسعون في رفاهيتهِ ؛ لاعتقادهم أن هناك مصلحة هي اكبر فائدة واكثر أهمية من كل ما سواها : ألا وهي (مصلحة الوطن) الذي هو عبارة عن اسرة كبيرة كلنا ابناؤها ، وكلنا مدينون لها بالمحبة والاخلاص اللذين من أجلهما ترى عين من حكم عليهِ بالنفي – مثلاً — تذرف دمعها السخين ؛ وترى الرجال ذوي الشعور الحي ، والعواطف الشريفة ، يضحون النفس والنفيس في خدمة الوطن ، ويضحون حياتهم في سبيل الدفاع عنهُ .

ولرب قائل يقول : ان الشعور الذي يربط ابناء البلد الواحد ، لا يمكن ان يوجد بين أشخاص من بلدان مختلفة . فالجواب :

الناس من جهة التصوير اكفاء   أبوهمُ آدم ، والأم حواء .

واذا كان الجميع من أصل واحد ، فكيف لا يعتبرون أنفسهم اخوة ؛ فيتعاونون على الخير وجلب المنافع ، ويتحدون في الدفاع عن أنفسهم أمام الاخطار والحوادث التي يتلاشى عندها كل فارق ، او اختلاف او تمييز بين شعوب العالم ؟

مثال ذلك : اذا قصدك فقير يسألك احساناً ، او رأيت آنساناً مشرفاً على الغرق ، فهل من المروءة ان تبحث عن جنسيته او ديانته ، قبل ان تمد له يد المساعدة ؟ كلا ! ثم كلا ! فقد يكفيك انهُ من بني الانسان ؛ وكل بني الانسان يجب ان يكون لهم نصيب من شفقتك ومعونتك واحسانك .

(وجد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهُ في طريقهِ يهودياً فقيراً ، يتعثر في ثياب الضعف والشيخوخة ؛ فقال : « تالله لقد ظلمناك يا شيخ ؛ أخذنا منك الجزية فتًى ، ونسيناك شيخاً » . وأمر له بصلة من بيت مال المسلمين ما بقي من حياتهِ)

مما تقدم ، يتضح أن (الانسانية او الجنس البشري) ، هما عبارة عن اسرة (كالوطن) ؛ وان كليهما ينطبق عليهِ اسم (هيئة اجتماعية) والشعور والافكار والمنافع ؛ هي التي تربطنا بغيرنا من بني الانسان ، او بعبارة أوضح — (هي روح كل اجتماع)

« الملخص »

يسمى هيئة اجتماعية ، اتحاد جملة أشخاص مشتركين في الافكار والمصلحة والشعور . والأسرة هي أوَّل الهيئات الاجتماعيـة ، وهذا الاسم يمتاز بهِ على الخصوص شيئان هما : « الوطن والانسانية » ، أو « الجنس البشري » اللذان يربط جميع أعضائهما الاخاء النـاتج من الاتحاد في النوع والفكر والقلب ؛ فالأسرة والوطن والانسانية ، (كثلاث دوائر متداخلة ، مركزها واحد) .

(٢) « الحاجة الى الاجتماع »

التلميذ — لقد فهمتُ الآن ما كان يقصده أخي الاكبر بقوله في موضوع انشائي : ان « الانسان مخلوق اجتماعي » ؛ مثبتاً بالبرهان القوي ان الجمعية هي من أهمّ الأمور الضرورية لحفظ ورقي النوع البشري .

الاستاذ — حسن . وما الذي استنتجتهُ من هذه النظرية ؟

التلميـذ — استنتجتُ أن الانسان يستحيل عليهِ أن يعيش بعيداً عن الاسرة التي هي الجمعيـة في الحقيقة ، كما تبين ؛ لأنهُ اذا اعتزل الرجل المرأة ، واستغنى كلٌّ عن صاحبهِ ، كان البقاء مستحيلاً . اذ أن الرجل في هذه الحالة يكون بلا مساعد يقوم بتدبير شؤونهِ الضرورية ، كتجهيز الملابس ، وتهيئة الطعام ، وما أشبه ذلك ؛ وتكون المرأة محرومة من يعولها ، ويأخذ بيدها ، ويدافع عنها ؛ وزيادة على ما

تقدَّم ، فان النوع البشري لا بدَّ أن ينقرض بانقطاع التناسل .

الاستاذ — نعم يا بني ؛ وذلك كلهُ من الأمور البديهية ، حتى انك ترى الأمم المتوحشة نفسها تسير على هذه السنة بحكم الطبيعة . وهو نظام إلهي يفهم منهُ أن الواجبات والحقوق والعواطف ، انما هي أشرف وأرقى ضمان لاتحاد النوع الانساني . واذا كانت الأسرة — وهي أول الجمعيات كما تقدَّم — قد تأسست بحكم الطبيعة ؛ أفهكذا كانت الحال في غيرها ؟

التلميذ — لستُ أدري بماذا أجيب .

الاستاذ — نعم انهُ ليصعب عليك ذلك ، فأعرني سمعكِ قليلاً أنبئك بما لم تعلم . لقد أتى على الانسان حين من الدهر كانت فيهِ الأسرة هي الجمعية الوحيدة ؛ وكان الاقدمون منذ نيف على أربعة آلاف عام ، يعيشون جماعات منفصلاً بعضها عن بعض ؛ يقضون نهارهم في اصطياد ما بهِ يتغذون ، ومنهُ يرتدون ؛ ثم يلجأون بالليل الى الكهوف والمغارات فراراً من اعتداء الحيوانات المفترسة ، كالسبع والضبع والنمر والذئب . وهي لم تكن في ذلك العهد أعداء وحدها للبشر ؛ بل كان الانسان عدوًّا للانسان أيضاً . اذ كانت كل اسرة تؤلف قبيلة ليس لها من عمل سوى شنّ الغارة على الآخرين لتسلبهم أموالهم وأنعَامَهم ، وتجليهم عن أرضهم التي يسكنونها ، مستعملة في ذلك آلات الحرب كالهراوات ، والأحجار ، والقِسِيّ ، والنُشّاب ، وما أشبه ذلك ؛ وبالجملة كانوا يعيشون من القتل والسلب والنهب ؛

ولو استمرت الحال على هذا المنوال ، لتلاشى النوع البشري . الاّ أن الرزايا اذا توالت تولّت . فان هذه القبائل، لكي تتمكن من صد هجمات المغيرين والذّب عن حياضها أمام خصومها ، اضطرت ان تتحد مع غيرها ، ثم اخذت دائرة ذلك الاتحاد تتسع شيئاً فشيئاً ؛ حتى تألفت الشعوب ، و بذلك انتقلت المسئلة من « اسرة » الى «وطن»

ولما كانت الروابط الطبيعية لا تكفي وحدها لاتحاد تلك الأمة الجديدة ، نظراً لضعف الشعور والمحبة والاخلاص بين أفرادها ؛ سنّت قواعد خصوصية حدّدت ما هو مسموح وما هو ممنوع . وهذه هي أصل الشرائع ، وأس « النظام الاجتماعي » .

ومما تقرر : ان لكل انسان الحق التام في التمتع بثمرة أعماله بلا منازع ولا معارض ، مهما زادت ايراداته عن حاجياته . بمعنى ما اذا فرضنا ان زيداً يستفيد من غلة أرضه مائتي اردب من القمح في كل عام ، وانهُ لا يحتاج لاكثر من عشرين منها ؛ فان الباقي له ، يتصرف فيهِ كما يحب ويختار بلا نزاع . وهذا ما يسمونهُ بالملكية .

الاّ ان « چان چاك روسو » ، ذلك الكاتب الفرنسي الشهير ، أحد نوابغ القرن الماضي ؛ صوّر لنا الجمعية البشرية بأنها نتيجة اتفاق حاصل بين الناس في القرون الاوَل ، سماه (العقد الاجتماعي) ، فكأنهُ يريد ان يقول بامكان وضع نظام آخر للجمعية ، خلاف نظامها الحالي ؛ بمعنى انهُ اذا كان المالك يتصرف في ملكه الزائد عن حاجتهِ الضرورية كما يشاء ، يمكن وضع قاعدة جديدة ، تقضي بأن الانسان لا يملك

الاّ ما يفي بحاجتهِ الضرورية للمعيشة . ولكن الرجل مخطئٌ في رأيهِ ، واهم في زعمهِ ؛ لأن نظام الجمعية وشرائعها ، انما وضعها من سلف ، وهم مدفوعون بعوامل قد يجهلونها وقتئذٍ ، وكلها ضرورات حتماً .

ومما لا نزاع فيهِ ، ان الجمعية من ألزم الامور لبقاء النوع الانساني وتحسين حالتهِ .

ولأجل بقاء الجمعية ؛ يجب ان يعترف كل انسان بأمرين رئيسين ، هما : « الاحتفاظ بالاموال والاحتفاظ بالارواح » لهذا كان من الضروري ، أن يزول ذلك الحاجز ، الذي كان يفصل الاسرات والقبائل والشعوب بعضها عن بعض؛ و بزواله أصبحت جميع الأمم — بوجه التقريب — خاضعة لنظام واحد ، مما يدل دلالة واضحة، ان ذلك النظام كان ضرورياً جداً للجميع ؛ وان القتل والسرقة ، والكذب والخيانة وما أشبهها ؛ وجدت من الأمور المحرمة عندالجميع .

هذا ما اتفق عليهِ العالم كافة ، كما اتفقوا أيضاً على ان « الانسانية » هي جمعية اخرى ، يجب على الانسان ان يكون عضواً عاملاً فيها ، بصرف النظر عن جنسيته و بلده . فالاخاء العام لا يمكن ان ينسينا ما يجب علينا نحو أوطاننا ؛ وما على الذين ينضمون تحت لوائهِ ، الاّ أن يفهموا ان الضرورة تحتم على كل الناس أن يتعاونوا و يتحدوا ، وهذا ما قضت بهِ جميع الشرائع الالهية والوضعية ؛ ومعنى قول الفلاسفة : ان الانسان مدني بالطبع .

« الملخص »

الجمعية ضرورية لبقاء النوع البشري ورقيّهِ .

وزمن الهمجية ، الذي كان الناس يعيشون فيهِ قبائل متفرقة ؛ أعقبهُ تقسيمها الى أمم متحدة ، أخذ أعضاؤها يتقدمون نحو المدنية شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحوا وهم يعتبرون أنفسهم اخوة لا محالة .

والشرائع الأساسية للهيئة الاجتماعية ، لم تكن نتيجة ذلك الاتفاق الذي كان منشؤه الاختيار ؛ بل هي نتيجة محتمة لتلك الضروريات المادية والادبية ، التي لم يخلُ منها زمان ولا مكان ؛ قضت بها مصلحة الاجتماع البشري .

(٣) « فائدة الاجتماع »

التلميذ — انهُ ليخيل لي يا سيدي الاستاذ ، ان الجمعية — فضلاً عن كونها ضرورية ؛ فانها نافعة لبني الانسان .

الاستاذ — بالتأكيد . وهل في استطاعتك ان تخبرني عن الفوائد الرئيسية التي تظن انها تسببت عنها ؟ ولنبتدئ بالفوائد المادية .

التلميذ — من المسلّم يا سيدي الاستاذ ، انهُ يوجد أعمال كثيرة يستحيل على الانسان القيام بها بمفرده ، ولا بد ان يشترك فيها الكثيرون ؛ كما لو اريد بناء بيت ، او تخطيط طريق ، او انشاء قنطرة ، او حفر ترعة ، او ما شاكل ذلك مثلاً ؛ أضف الى ذلك

ان هذه الاعمال ، قد تحتاج لكثير من الآلات والادوات التي يشترك في عملها عدد ليس بالقليل من الناس . فاذا أردنا صنع فأس مثلاً ؛ وجب علينا ان نبحث عن منجم لاستخراج الحديد ؛ ثم نستخلص ذلك المعدن مما هو مختلط بهِ من الاتربة والاحجار الصغيرة ؛ وذلك بواسطة الذوبان الذي يحتاج لحرارة عظيمة ، وهذه الحرارة تتولد من الفحم الذي يستخرج من الارض ايضاً ، والذي يحتاج استخراجه لصعوبات لا تحد ، وأخطار لا تعد . فاذا ما تم كل ذلك ، وعملت السبيكة ؛ وجب ان تصهر ، وتحلل بطريقة مخصوصة ، لتكتسب الصلابة المطلوبة .

الاستاذ — لقد تكلمت يا بني عن الحديد واستخراجهِ ؛ ولكنك لم تذكر شيئاً عن الاتعاب الجسيمة ، التي تلزم لصنعهِ وصقله ، وشحذه ونشره وما يماثلها من الامور التي لولاها لم تفلح أرض ، ولم تقطع أحجار ولا أخشاب ، ولم تنسج أقمشة ، ولم تصنع مركبات او مراكب ، ولا كان شيءٌ على الاطلاق مما يسهل على الانسان طرق المعيشة . فليس من الغريب ان يتحد أهالي البلد الواحد ، او كل البلاد على العموم ، لاقتسام تلك الارباح الطبيعية التي لا تحصى ، ولملافاة الاخطار التي تهدد الجميع .

فاول فائدة للجمعية اذاً ؛ هي زيادة رفاه بني الانسان ونعيمهم .

التلميذ — نعم ؛ وانهُ يخيل لي ان الجمعية لم تصل الى هذه النتيجة ، الا لأنها حتمت على الانسان ان لا يقتصر على الاشتغال

بأمر نفسه ؛ بل يجب عليهِ ان يسعى فيما يفيد غيره . فالخباز مثلاً : يصنع الخبز للجميع ، لعلمه ان القصاب يقدم له اللحم ، والبدال يبيعه السكر والملح ، والخائط يصنع له الملابس وهكذا .

الاستاذ — انهُ لكذلك ، وهذا من أهم فوائد الجمعية ؛ لأن توزيع العمل يزيد في الفائدة ، ويقلل عناء العمال . وانهُ لمن المستحيل على فرد واحد ، او اسرة واحدة ؛ أن تقوم بفلاحة الأرض ، وبذر البذار ، وحصد الزرع ، وعمل الخبز ، وذبح الماشية ، وتهيئة الطعام ، وصنع الآلات وغير ذلك ، مما هي في حاجة اليهِ . ولنفرض أنهُ من الممكن ؛ فكم من الوقت يستلزم ؟

ولكي يقرب الى ذهنك تصوُّر مقدار الفائدة التي تنجم عن تقسيم العمل — افرض ان صانعاً يريد ان يصنع بمفرده (ابرة) حتى تصير صالحة للعمل — فهل تظن ان ذلك يتم في أقل من نصف يوم ؟ كلاَّ . مع انهُ في بعض المعامل الكبيرة ، ترى بعض العاملات ، يصنعنَ آلافاً من الابر في اليوم الواحد ؛ هذه تقطع السلك وهاتيك تدبب طرفهُ ، وتلك تعدّل رأسهُ ، وأخرى تصقله . وقس على ذلك باقي الأعمال ؛ فان في تقسيمها تسهيلاً للعمل ، وازدياداً للفائدة ومع ذلك ، فان هذه الفوائد المـادية التي تنحصر فيها سعادة الانسان ، لا يصح أن تنسينا تلك الفوائد الأدبية التي نكتسبها من الحياة في الجمعية . فهل لك أن تضرب لي بعض الأمثال ؟

التلميذ — نعم ؛ اذا عاش الانسان منفرداً ، فكيف يتعلم القراءة والكتابة والحساب ؟

الاستاذ — أحسنتَ يا بني ؛ فلقد كان الانسان لا بدَّ له من احد أمرين : اما أن يعيش مدَّة حياتهِ جاهلاً ، واما ان يرجع الى ما كانت عليهِ أجداده في الازمان الغابرة ، أيام لا علوم ولا معارف ولا صنائع . أضف الى ما تقدَّم ، ان تلك القوانين الطبيعية لم يكتشفها انسان بمفرده ؛ فكم من قرون مضت قبل أن يعرف الانسان ان الأرض تدور حول الشمس . وليست هذه هي التي تدور حول الأرض ، كما كان يظنهُ الأقدمون .

التلميذ — نعم ؛ ولقد فهمتُ أيضاً يا سيدي الاستاذ ، ان صنع الآلات مثلاً ؛ يحتاج الى جملة أشخاص يعملون معاً ؛ وحينئذٍ ، لا بدَّ أن يكون اختراع أنواع تلك الآلات ، مما يحتاج ايضاً لعدد وافر من العلماء والمفكرين ، وكذلك طريقة استعمال تلك الآلات . ولو اشتغل كل انسان على انفراده ، ثم مات ولم يطلع احداً على سر اكتشافه ، لصعب الوصول الى الغرض المطلوب ، او الحصول على ضالتهِ المنشودة .

الاستاذ — لقد أصبتَ يا بني ؛ فلقد فكر (دنيس بابين) منذ نيف على مئة من السنين ، في ان يتخذ من البخار قوَّة محرّكة ؛ ومع ذلك فانهم لم يوفقوا الى ذلك ، حتى كان عهد (وات وفولتون) ، اللذين عرفا كيف يستخدمان تلك القوَّة في القواطر والمراكب .

وبالجملة فان الجمعية هي السبب أيضاً في الفوائد الأدبية التي

لا يصحُّ اهمالها ؛ فان الرجل اذا اعتزل العالم ، أصبح متوحشاً ، فظًّا غليظ القلب ، وكذلك كانت أخلاق الانسان في زمن الهمجيـة ، أشبه شيء بأخلاق الحيوانات المفترسة التي تعيش في الغابات والآجام. فلما انتشرت الجمعية أصبحت الحياة أشهى وأسهل مما كانت قبلاً ؛ وأخذت الأخلاق والعادات شكلاً جديداً . فصارت الحروب التي كانت من الأمور العادية ، نادرة من النوادر ، واكتسبت الانسانية شكلاً خصوصياً معناه الاخاء ؛ كما أخذ التمدُّن كلما اتسعت دائرتهُ يمحو شيئاً فشيئاً ما بقي من آثار الهمجية .

فمنذ مائة عام مثلاً ؛ بطل الرق ، وتقرَّر الاعتناء بجرحى الحروب ؛ الأَّ انها بقيت محتاجة الى كثير من الأمور التي سوف يتكفل بها المستقبل . وان المصريين ليفتخرون بأنهم كانوا دائماً أنصار الانسانية حيث كانوا أوَّل الأمم التي أبطلت الرق .

أما هذا النجاح الثلاثي : (المادّي والأدبي والعقلي) فانهُ دين علينا في الحقيقة لتأثير الجمعية ؛ وكذلك الفضائل التي تتعلق بها ؛ وهي التي يعبرون عنها بلفظ (انسانية) او (رقة الاخلاق)

« الملخص »

الجمعية أصل كل فائدة مادية أو أدبية للانسان ؛ وهي تسمح له بأن يزيد في رغده ، باتحاد قوى كثير من الافراد .

وتقسيم الأعمال ، يقلل عناء العمال ؛ فيعملون بكل سرعة ، ما

كانوا يظنونهُ مستحيلاً . والنجاح الفكري أصبح مؤكداً بفضل الجمعية التي يشترك كل انسان فيما تأتيهِ من الاكتشافات. وأخيراً ، قد أدخلت الحياة العمومية تحسيناً على أخلاق الانسان ، وقدمتهُ تقديماً محسوساً .

« تمرينات »

ما الجمعيـة ؟ — قارن بينها وبين الأسرة — ما معنى نظام اجتماعي ؟ — رقي اجتماعي ؟ — ما الجمعيات الوسيطة بين الأسرة والوطن ؟ — لماذا كان الوطن والانسانية من أفضل تلك الجمعيات ؟ — اثبت بالبرهان ، ان الجمعيـة ضرورية لنموّ ورقي النوع الانساني — ما زمن الهمجيـة ؟ — كيف تكوّن الوطن ؟ — هل الجمعية نتيجة اتفاق ، أهي من الضروريات ؟ — اذكر الفوائد المادية التي تعود على الحياة من الجمعيـة — كيف أصبح الرقي الفكري ممكناً بفضل الجمعية ؟ — ما الفوائد الأدبية التي يكتسبها الانسان من المعيشة في الجمعية ؟

الفصل الثاني

(١) « العدل في الهيئة الاجتماعية »

الاستاذ — المتبع في كل مكان ، ان الانسان اذا ما ارتبط بآخرين ، لا بدَّ له من قاعدة لترتيب معاملتـه أياهم ، على حسب

القانون الادبي الذي ذكرناه في الجزء الأول ؛ كما بحثنا في الواجبات التي ترتبط بها كل جمعية بشرية . والآن ، نتكلم على اكبر تلك الجمعيات وهي (الانسانيـة) ، ونذكر الفروض التي تتعين على كل ذي علاقة بها .

من النظريات الثابتة ، أن لا « اجتماع الا مع العدل » ؛ فهل لك أن تعبر لي عما يمكنك ان تفهمهُ من معنى ذلك القول ؟ — وما هو العدل على ما تظن ؟

التلميذ — لقد سألت والدي عن ذلك يا استاذي منذ بضعة ايام ، فقال : انهُ « اعطاء كل ذي حق حقه » .

الاستاذ — لقد أصاب ؛ ولكن ، هل تعرف ما هو المقصود من ذلك يا بني .

التلميذ — المقصود من ذلك على ما أظن ، هو أن يدفع الانسان ما عليهِ من الديون ، ويردّ لكل شخص ما يكون قد أخذه منـهُ ، ولا يغش رفقاءه ؛ بل يجتهد في أن يكون غير مدين لأحد بشيء ما .

الاستاذ — لقد أجدت ، وان كنت لم توفِّ الموضوع حقهُ .

لنفرض ان أحد القضاة حكم على أحد المجرمين بالسجن ؛ او ان معلمك كافأك على حسن اجتهادك ؛ او ان انساناً أحسن اليك فشكرت له فضله . أليس ذلك من ضروب العدل ايضاً ؟

التلميذ — اذاً ، العدل هو ان يقابل الانسان الحسنة بالحسنـة ، والسيئة بالسيئة .

الاستاذ – نعم ! ولكن – هل اذا صفعك أحد زملائك مثلاً ، كان من الواجب عليك عدلاً ، ان تقابله بمثل ذلك ؟ ان هذا وان كان من العدل حقيقة ، الا انهُ لا يلائم احوال المعيشة ؛ لأنك اذا اتبعت هذه السنَّة ، فسوف تقضي حياتك في نزاع لا طائل تحته . فلندع تلك النظرية التي علمكها والدك ، ولنبحث عن اخرى تكون اكثر ملاءمة للحياة . ألا تذكر قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ؛ او قوله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ، ما يحب لنفسه » . قل لي ، ما الذي فهمتهُ من تلك الآية الكريمة ، وهذا الحديث الشريف ؟

التلميذ – فهمت ان الانسان يجب ان يحسن الى الناس ما استطاع ، ويتجنب كل ما فيهِ ضررهم وأذاهم ؛ فلا يسرق منهم ، ولا يشي بهم ، ولا ينم عليهم ؛ وبالجملة يعفو عن زلاتهم ، فلا يعاملهم بما يستحقون .

الاستاذ – وكيف ذلك ؟ لنفرض ان شخصاً قتل آخر ، وحكمت محكمة الجنايات عليهِ بالاعدام . فهل من العدل ان تسعى في تبرئتهِ واطلاق سراحه ؟ ان هذا ليس من العدل في شيء ؛ لأن احترام المرتبة البشرية في شخصك ، وفي شخص الآخرين ، هو القاعدة الأساسية للعدل ؛ ولأنك اذا احترمت انساناً ، فلا ترضى ان تضره في حياتهِ ، او شرفه ، او ماله ، او اي شيء من متعلقاتهِ . ولكن اياك ان تحترم من لم يحترم نفسه ؛ فان هذا بلا شك ، أولى بالاحتقار لأن الرجل الذي يسترسل في الغضب والشراسة ، ويتصف بالاخلاق

الفاسدة ، يجني على العدل لا محالة . ولا يمكن أن يكون الانسان عادلاً وشريفاً الاَّ اذا امتنع عن ايذاء عباد الله ، وأعطى كل ذي حق حقهُ .

التلميذ – عفواً يا سيدي الاستاذ ! اننا اذا احترمنا الشرف الانساني ، فلا بدَّ ان نلاقي كثيراً من الصعوبات ؛ والاَّ فكيف يجوز لنا أن نعاقب المجرمين ؟

الاستاذ – أظنك لم تفهم بعد معنى (احترام الشرف الانساني) الذي لم يكن الغرض منهُ تجنب انتهاك حرمة تلك الوظيفة فقط ؛ بل والكفّ أيضاً عن الخصال القبيحة ، والأعمال المضرَّة ، والسعي في منع وقوع ذلك فعلاً . مثال ذلك : اذا ارتكب انسان جريمة السكر ، (والسكر مخالف للمرتبة البشرية) وجبت بمقتضى الشريعة معاقبته ؛ فالقاضي الذي يحكم عليهِ بالحبس أو الغرامة ، ألا يكون قد فعل ما يقتضيه العدل ؟ الجواب نعم ! ولا شك ! وكذلك اذا وُجد انسان بحال سكر بيّن ، وعربدة ، في مكان بعيد عن نظر رجال الضبط ، ثم أخذ يصيح ويغني أغاني غير لائقة ، او أخذ يعاكس المارَّة ، ألا يكون لكل انسان الحق في أن يمنعهُ من ذلك باسم الوظيفة البشرية ؟

او اذا رأيت شخصاً يسعى في سرقة ، او غشّ آخر ، ألا يكون من وظيفتك ، أن تحول بينهُ وبين ما يبتغيهِ ؟ وذلك بأن تدافع عن حقوق صاحب ذلك الشيء ، حتى يسود العدل الذي معناه في الحقيقة احترام حقوق الآخرين ؟

كل ذلك حق وعدل . ومما تقدَّم يتضح ان الجمعية لا يمكن أن

تقوم لها قائمة بغير العدل ، وان الجمعية انما هي عبارة عن اجتماع جملة أشخاص ، لكل منهم حقوق وواجبات ، وأماني ومصالح . فاذا لم يكن الانسان آمناً مطمئناً متمتعاً بكل ذلك بتمام الحرية ؛ فعلى مَ يعاشر الناس اذاً ؟

ان الهيئة التي لا يكون فيها احترام حقوق الآخرين مضموناً ؛ هي في شبه حرب او في الطريق المفضية اليها ؛ اذ تضطرُّ كل اسرة الى الانفصال عن الأخرى ، لتدافع عن نفسها عند مسيس الحاجة ، وبذلك لا بدَّ ان تتلاشى تلك الهيئة من نفسها .

ان المصالح الخصوصية لا تكفي وحدها لحفظ النظام العام ؛ كما ان الميول الشخصية لا توجب احترام جميع اعضاء الهيئة . لأن المصالح والميول قد تكون متضادة عند الناس . لذلك كان من الضروري ؛ ايجاد قاعدة مستقلة تمام الاستقلال ، بعيدة عن كل غرض من الأغراض . وهذه القاعدة انما هي (العدل) . الذي هو مطابقة الشريعة الأدبية ، للعلاقات التي تنشأ عنها المعاشرة .

فالعدل يقضي بأن لا بدَّ للانسان ان يُقدِّر احترام الشرف الانساني حق قدره ؛ سواء كان ذلك فيما يختص بشخصه او بغيره .

« الملخص »

العدل ينحصر فيما يلي :

« عامل الناس بما تحب ان يعاملوك بهِ » ؛ وزيادة على ذلك ،

يجب عليك ان تحترم الوظيفة البشرية ، سواء كان ذلك بالنسبة لشخصك او للآخرين .

(٢) « مستلزمات العدل »

الاستاذ — ان اول قاعدة يجب السير على مقتضاها ، هي (احترام النوع البشري) . ولنتكلم عن الواجبات الخاصة التي تترتب على هذا الواجب العام :

من البديهي ، ان العدل يقضي علينا ، بان نحترم حياة أمثالنا من بني الانسان ؛ لأن كل مخلوق على وجه البسيطة ، انما يشغل فراغاً في الهيئة الاجتماعية . فهو يكد و يشتغل ، و يعمل الخيرات ، و يحرث الارض ؛ واولادنا يقتفون أثره ، و يتممون عمله ، و يسيرون على نهجهِ .

فقتل النفس مثلاً ، يحرمها تأدية تلك الاعمال المفيدة ، و يخلّ بالنظام الكوني ، فضلاً عن مخالفتهِ كل المخالفة ، لما تقتضيهِ الذمة ؛ وهو أفظع اثم يرتكب على المرتبة البشرية . كيف لا ! وفي هذه الحالة يكون قد انفصل عنها عضو من أعضائها . وقد أمر الله سبحانهُ وتعالى باجتناب ذلك فقال عز من قائل : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الاَّ بالحق » ؛ ولذلك اتفقت الشريعة الإلهية مع الشريعة الوضعية ، على وجوب قتل من يقتل نفساً بريئة بغير حق . فقد قال سبحانهُ وتعالى « النفس بالنفس » ، « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب» . ولا يمكن ان يستثنى من ذلك الاّ القتل في موضعين اثنين:

في حالة الدفاع الشرعي ، وفي الحرب . لأنهُ في الحالة الاولى ، يكون للانسان الحق في الدفاع عن نفسهِ وماله بكافة الوسائل الممكنة ؛ اذ ان الذي يعتدي على حياة النـاس ، لا يصح ان يبقى في عداد بني الانسان . ومع ذلك ، فان من الواجب علينا ، ان نبذل كل الجهد في ان تكون ضرباتنا غير قاضية على حياتهِ ، مهما سعى هو في معاملتنا بعكس هذه الطريقة .

وفي الثانية ، (وهي الحرب) فان الشعب يكون اذ ذاك مضطراً للدفاع عن حياتهِ ؛ وناهيك بما يدفع الجنود وقت ذلك من الشعور والاحساس؛ اذ ان قتالهم — والحالة هذه — لم يكن انتقاماً لأشخاصهم؛ بل دفاعاً عن الوطن الذي يجب ان تضحى في سبيله النفس والنفيس. ولذلك يقدمون ارواحهم ، فداءً له عن طيب خاطر . واذا قصروا في ذلك كانوا مجرمين آثمين خائنين ، قد جنوا على تلك الامـة التي علقت آمالها بهم ، ووكلت اليهم أمر سلامتها وشرفها .

حكي ان بعض عساكر المسلمين في حروب الصليب ، كانوا يدخلون ليلاً خيام الفرنج ، فيسرقون ما تصل اليهِ ايديهم من متاع وسلاح ؛ فاتفق ان بعضهم أخذ صبياً من حجر أمه ؛ فوجدت عليـهِ وجداً شديداً ، واشتكت لملوكهم ، فلم تجد نفعاً . فجاءت الى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقصت عليهِ قصتها ، فرقَّ لها ودَمعت عيناه ، وأمر فأُحضر الصبي؛ وكان بيع في السوق فدفع ثمنهُ لمن اشتراه . فاعترض عليهِ فقال له: «إنا نحارب أشخاصاً أعلنوا حربنا، وما نحارب بني الانسان».

وكذلك يجب على الانسان ان لا يعتدي على حياة نفسه ، او يتخلى عن حريتهِ . لذلك كان الانتحار مثلاً ، نذالة وجبناً ؛ لأن لكل انسان منا — كما سبق ذكره — وظيفة يؤديها في الهيئة الاجتماعية ، لا تقلّ عن وظيفة ذلك الحارس الذي يقيمهُ لحراسة مكان ما . فكما ان هذا لا حقَّ له في تركه مطلقاً ، كذلك الانسان لا يجوز له أن يعجل بمفارقة الحياة قبل الساعة المحدَّدة ؛ والاَّ ظلم نفسه وأخلّ بنظام الحياة . وكل ذلك نقص في التدبير العام .

ولقد ضرب لنا سقراط عن ذلك مثلاً فقال :

« اذا حاول عبدك ان يقتل نفسه — أما كان لك ان تعاقبهُ ، على تخلصهِ من خدمتك بغير حق ؟ »

فاذا كان هذا حال العبد ؛ فكيف لا يعاقب الله ذلك الذي اعتدى على شريعتهِ وأساء الى احسانهِ .

أعرني سمعك قليلاً أيها اليائس الذي يتمنى لو فارق الحياة ؛ انهُ اذا كان في قلبك مثقال ذرة من الميل الى الفضائل ؛ فاصغ اليَّ اعلمك كيف ترغب في البقاء . عاهد نفسكَ على انك كلما هممتَ بمفارقة الحياة الدنيا ، تخاطب نفسك قائلاً : « ومالي لا اعمل عملاً صالحاً قبل ان أموت ، عسى ان يغفر لي ربي ما تقدَّم من ذنبي » . ثم اسرع الى مساعدة يائس ، او اعانة ملهوف ، او تعزية بائس ، او الدفاع عن مظلوم . فانك اذا فعلت ، وجدتَ من نفسك دافعاً يدفعك الى عمل الخير ، ويحبب اليك الحياة .

أما اذا لم يجد ذلك سبيلاً الى قلبك ، وتأثيراً على عواطفك ؛ فمت ، فما أنت الاَّ جبان؟ وكذلك الانسان الذي يسعى ليسلب نفسه حريتها ؛ فأنهُ يكون قد أساء الى الوظيفة البشرية لا محالة ، واعتدى على الاحترام الذي يجب عليهِ نحو شخصهِ .

ألا تذكر تلك الحادثة المشهورة (حادثة الذئب مع الكلب) المذكورة في كتاب العيون اليواقظ ؟

يحكى ان ذئباً هزيلاً ، قابل كلباً ممتلئ الجسم ، زاهي اللون ؛ فسأله عن سبب تلك السعادة ، ودار بينهما الحديث الآتي :

﴿ الذئب والكلب ﴾

ذئبٌ ضعيف مرَّ بعد العصرِ ... يسعى على القوت بجنب القصرِ
فجاءه كلبٌ كبيرُ الجرمِ ... مغُرى من الدنيا بمصّ العظمِ
ومذْ رآه وحده ضعيفا ... مكسراً ، مهشماً ، نحيفا . . .
قامت بهِ مروءة الكلابِ ... ولم يعدّه من الذئابِ
وانما أقرأه السلاما ... فطأطأ الذئب له ، ونااما
وقام في ذل ، وفي تواضعِ ... يدعو له بكثرة المراضعِ
وحين هناه على صحتهِ ... ودخل المسكين في صحبتهِ
قال له الكلب : ولِمْ أراكا ... — بين الذئاب — السقمُ قد براكا
ما ضرَّ لو جئت معي في الدارِ ... تأكل بالليل وبالنهارِ

حتى تعود في مجاري الصحه   وتأكل اللحمــة كل لحمه
وكل ذا أحسن من نط الخلا   وربمــا نطٌ يقطّ الأجلا
وبينما الكلب يرجّي نصحا   والذئب يرجو في يديهِ الصلحا
اذ لمح الذئب بجيـد الكلبِ   آثار أطواق الأذى والكربِ
قال له : يا كلب ما بالجيـدِ   فقـال : هـذا أثر الحديدِ
لأنهم بالليـل يطلقونني   وانـ أتى النهار يربطونني
قال : وهـل تريدني أرتبط   دعني الى الشوك ، بهِ أختبط
لا رأي لي في الاكل والتنعمِ   ما دام في جيديَ طوق الادهمِ
وبالغنى لم يكُ لي افتتانُ   ما دام فيهِ الذلّ والهوانُ

ومن الواجبـات المفروضة على كل انسان للهيئة الاجتماعية ، الاحتفاظ بحقوق غيره . فكما ان من الواجب علينا ، ان نصون حياة الأشخاص ؛ فان من الواجب علينـا ايضاً ان نصون اموالهم ، وما يحتاجون اليهِ ، ويستعملونهُ في سبيل الحياة الدنيا .

ان مشروعية حق الملكية ، من الاشياء التي يجب علينا اعتبارها بديهة لا نزاع فيها ؛ وان اول شيءٍ نملكه ، انما هو ذلك البناء الذي تسكنهُ روحنا . ولكن كيف نبسط ملكنا على ما لم يكن لنا . الجواب : ان الحياة لا تحفظ ، الا بواسطة التبادل الدائم ما بين اجزاء الجسم الحي ، والاجسام المحيطة بهِ ؛ لذلك كان من اللازم ، ان يكون لنا بعض تلك الاشياء ، ليسهل سبيل الحياة .

ان حقوق الملكيــة لم تتأسس على سعي الانسان للحصول على ما بهِ قوام الحياة ؛ بل على التحسين الذي يبدو من ثمرة أعماله ، نحو المادة التي يستعمل فيها نشاطه .

مثال ذلك ، اذا فرضنا انهُ يوجد قطعة أرض ، لا هي مزروعة ولا هي مملوكة لأحد ؛ وان أحدهم وضع يده عليها وزرعها . فمن المعقول حينئذٍ ان الذي أصلحها وغرسها فأنبتها ، هو أحق الناس بثمرها .

أما امتلاك نفس الأرض ؛ فله شروط كثيرة نتكلم عليها فنقول: ان الأساس الاول للملكية هو (وضع اليد) ؛ ومعنــاه « ان ما لم يكن مملوكاً لأحد ، فلمن يستحوذ عليهِ » . الا ان هذه القاعدة ، لا يمكن ان تسري على ما هي عليهِ الدنيا الآن ؛ لأنهُ قلَّ ان يوجد مكان ، الاَّ وله مالك ؛ حتى انك لترى الجبال نفسها ، والغابات ، والانهار ؛ مملوكة للحكومة وهي لا تسمح لأحد ان ينتفع بها او يمتلكها ، الاَّ بالشروط المبينة بالقوانين .

اما في الزمن السابق ، فقد كانت الحالة على عكس ذلك ، اذ كان كثير من المساحات لغير ملاّك . وكان يكفي لثبوت ملكيتها ، ان يضع الانسان يده عليها ، ويعمل بها ما يدلّ على استحواذه عليها ؛ كأن يزرعها ، او يبني بها منزلاً ، او يقيم عليها سوراً ، او ما شاكل ذلك . ولم تزل هذه الطريقة متبعة الى الآن في الجزر البعيدة ، والصحارى المقفرة ؛ وفي الحقيقة قد ضمنت القوانين والشرائع الاجتماعية حقوق الملكية ، واعترفت لكل انسان بحق الانتفاع بما هو مملوك له ، بلا

معارضة من أحد وكذلك حق توريث ما يملكه للاقربين اليه من بعده .

وكما انهُ لا يجوز الاعتداء على نفس الاشخاص، كذلك لا يجوز الاعتداء على املاكهم . فان الاعتراف بها ، واحترام تلك الملكية ، شرط من شروط بقاء الجمعية ، كاحترام الحياة البشرية . ولا شك ان حرمان الانسان الانتفاع بما يملكه ؛ هو اعتداء على الحقوق الشرعية التي تحصل بمقتضاها عليهِ ؛ وهو مما يضرّ بوظيفته ، ويخالف مستلزمات العدل.

أما أشهر طرق الاعتداء على حقوق الآخرين ؛ فهي السرقة ، وهي حصول الشخص على شيءٍ من حقوق الآخرين بغير حق . وكل أنواع السرقات قد يُعاقب عليها قانوناً ، الاَّ انها تختلف بعضها عن بعض في فظاعة الجرم . فالسرقة باكراه مثلاً ، من أفظع الجرائم ؛ أما سرقة الاشياء في حال غياب ملاَّكها ، فانها أخف ضرراً . ثم يتبع ذلك الغش والتدليس ؛ كأن يبيع الانسان للآخر حصاناً يعرف انهُ مريض كثير العيوب ، ثم هو يؤكد انهُ سليم ليس بهِ عيب ؛ أو ينقص الكيل والميزان ؛ او يسعى في تهريب شيء من الممنوعات ؛ او ما شاكل ذلك ، مما يصدق على فاعله انهُ خائن ، او خرِب الذمة ، او عادم الوفاء .

أضف الى ذلك ، اولئك الذين يأبون ان يردُّوا الأمانات الى أهلها ، او المبالغ التي اقترضوها ، او وجدوا شيئاً فحفظوه لأنفسهم ، او امتنعوا عن رد شيء أخذوه من شخص بحجة النسيان ؛ وما هي في الحقيقة الا مماطلة — وهكذا .

أما هذا الاعتداء على حقوق الآخرين ، فقد يتحوّل أحياناً الى سرقة ؛ وكلها تحط من قدر الشرف الانساني بلا شك .

ان حقوق الهيئة البشرية ، لتفوق في الأهمية حقوق الحياة والحرية والسعادة ؛ اذ كل انسان منا يتوقف مقدار احترامه في نظر اخوانه ، على ما يكون متصفاً بهِ من الأخلاق والخلال . وبالجملة ، يتوقف على تلك الصفة التي ظهر للناس عليها . وهذه المزية هي أفضل وأشرف كل شيء ، وهي ما يعبرون عنهُ (بالسمعة) او (الشرف) ؛ وهي أقرب الصفات الى المرتبة البشرية . وانهُ كما يجب علينا ان نحترم ونبجل أهل الخير ؛ فانهُ يجب ألاَّ نتساهل في الحكم على اولئك الذين يسيئون بالناس الظن . فكم من بريء تألم من قولٍ وجّه اليهِ على غير هدى ، ولذلك فان القانون قرَّر المعاقبة على التشهير ، وهو الاعتداء على أعراض الآخرين بالقول ، او بطرق النشر ؛ ولا يطلب من القاذف اثبات صحة ما قذف بهِ .

وقد يكون الأمر أخفّ من ذلك في بعض الأحيان ؛ كأن يتعرَّض القاذف لشرف الشخص ؛ بل يلصق بهِ اموراً غير لائقة ، ويجتهد في الحطّ من قدره ، وتحقيره في أعين غيره . ومع ذلك فان كل هذه السفاسف والأقاويل ، قد يعاقب عليها القانون . ومن الواجب على كل ذي شعور شريف ، ان يبتعد عنها .

ثم اعلم يا بني ؛ ان لكل انسان آراء ومعتقدات ، لا تقلّ احتراماً عن شرفهِ وماله وحياتهِ . ولقد أباحت قوانين الثورة الفرنسوية

سنة ١٧٨٩ حرية المعتقدات ؛ فقابلها كل انسان بالرضاء والارتياح . فالأتقياء من أي دين مثلاً ؛ لهم ان يؤدوا شعائر دينهم ، بلا منازع ولا معارض .

ولا شيء اقبح عند الرجل الحر ، من استهزاء بعضهم ، او لعنهم شخصاً لمعتقده ، أو لادائه تلك الصيغة التي يستلزمها ذلك المعتقد ؛ أو اولئك الذين يخالفونهم في المعتقدات . خصوصاً وقد انقضى زمن الاضطهاد ، وأصبح جميع الناس المتمدينين يحاربون التعصب الديني ، والهيجان الذي يتولد في افكار بعضهم ، لمخالفة غيرهم لهم في الاديان بكل قواهم . وبذلك صار كل انسان حرَّ التصرف ، ما دام بعيداً عن الاضرار بالآخرين ؛ فهو مطلق الحرية فيما يعتقد ويتمنى ، ويفكر ويقول ، كما انهُ له الحق في فعل كما يوافق اعتقاده الديني

ويوجد على هذا النمط امور كثيرة ، كمعترك السياسة مثلاً ، وهو ما لا يحق لك ان تخوض غماره يا بني ؛ فان بعض المشتغلين به يظنون انهُ لا تحابّ ، ولا احترام بينهم وبين الاشخاص الذين يخالفونهم في الرأي ؛ وهو غلط واضح . لأن من الجائز ان يختلف الناس على أي أمر من الأمور ، بدون ان يؤثر ذلك الخلاف فيما بينهم من المحبة . واذا كان من الواجب علينا أن نحترم حرية سوانا في الافعال ؛ فهلاَّ احترمنا حريتهم في افكارهم وميولهم ؟ فالتسامح ركن من اركان العـدل ، وهو ذو أهمية عظمى لوجود الوفاق بين الناس المختلفين في الرأي او الاعتقاد

(٣) « معاملة المرء لغير أهل دينه »

الاستاذ — كيف تعامل اذاً يا بني أهل الأديان الأخرى المخالفة لدينك ، او المغايرة لمذهبك ؟

التلميذ — أحسن معاشرتهم ، واعطف عليهم عطفي على ابناء ديني ؛ لأنهم اخواني في الانسانية .

الاستاذ — بخ بخ لك يا بني !

التلميـذ — ولكنا نسمع بعض الناس يقولون : « ولا تؤمنوا الاّ لمن تبع دينكم »

الاستاذ — كلا ! وألف كلا ! فان هـذه الآية جاءت في القرآن الكريم ، حكاية عن كفار قريش ، يحذرون أنفسهم من معاملة اصحاب رسول الله ، عليهِ الصلاة والسلام ؛ ولذلك لا يصح ان يؤخذ قولهم نصيحة عامة . ولو كان العكس ، لوجب الاخذ بهِ حقيقة . قال الله تعالى في محكم كتابه : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغهُ مأمنه » هذا امان الاسلام لاهل الشرك ، فما ظنك بأمانهِ لاهلِ الأديان السماوية ؛ وقد قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يجادلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ان تبروهم وتقسطوا اليهم؛ ان الله يحب المقسطين » وتفرق الناس شيعاً ـ سنة الله في خلقه ، قضت بها الارداة الازلية — قال تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

والخلاصة – ان جميع أهل وطننا ، وان اختلفوا ديناً ، او تباينوا مذهباً ، والمستوطنين الغرباء أهل الذمة (اي العهود) ، سواءٌ في محبتنا واحترامنا ، ومعاملتنا (لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا) شرعاً .

قال أبو العلاء المعرّي :

والدين انصافك الأقوام كلهم   وأي دين لآبي الحق ان وجبا

« الملخص »

من الواجب علينا أن نحترم حيـاة غيرنا ، الاَّ في حالتي الدفاع الشرعي والحرب . وليس لنا الحق بأي وجه من الوجوه في الاعتداء على حرية الآخرين ، ولا في التخلي عن حريتنا الشخصية

كل من قتل نفسه ، يكون من الجبناء .

يجب علينا أن نحترم حقوق الناس ، وسمعتهم ، ومعتقداتهم ؛ فان الدين لله وحده ، والوطن للجميع :

الدّين للدَّيان جلَّ جلاله   لو شاء ربك وَحَّدَ الأقواما

(٤)   « فضائل العدل »

ان تلك الواجبات التي ذكرناها ، قد يتبعها فضائل كثيرة ، هي في الحقيقة نتيجة تأدية تلك الواجبات .

أما أوَّل تلك الفضائل وأهمها وأجدرها بالثناء فهي :

(١) « الأمانة » التي تقضي بأن لا يغتصب الانسان ما لغيره ؛

او بعبارة أعمّ وأوضح – لا يجوز له ان يعتدي على حياة الاخرين ، او حريتهم ، او أموالهم ، او أعراضهم . والأمانة هي احدى تلك الفضائل التي يتحلى بها الرجل الشريف الذي لا يسيء الى احد .

أما القتلة ، واللصوص ، وقطاع الطريق ، والطغاة ، فهؤلاء كلهم أعداء تلك الفضيلة .

والأمانة تفرض علينا كثيراً من الواجبات : تفرض علينا ان نعطي كل ذي حق حقهُ ، وان نرد الاشياء التي نجدها لأصحابها . وهناك مسألة اخرى : لنفرض انك حسَّنت لأحد رفقائك ان يلعب (البلي) معك ، مع علمك انهُ لا يحسن اللعب ؛ وكان هو يظن انك لست ببارع فيهِ ، وانبنى على ذلك ان ربحت كل ما كان معهُ ؛ فانك لا يمكن ان تُعتبر فتى شريفاً ، الاَّ اذا رددتَ اليــهِ ما ربحتهُ منهُ على تلك الصورة .

وتفرض علينا أيضاً ان نقول الحق دائماً وأبداً ، فانهُ لا سعادة الاَّ مع «الصدق» نعم – لقد يضرُّنا الصدق احياناً – الاَّ اننا نكون اذ ذاك قد أرضينا ذمتنا ، وأرحنا ضميرنا . وما أحسن قول من قال :

عليك بالصدق ، ولو انهُ أحرقك الصدق بنار الوعيد

فاذا فرضنا ان المعلم رأى خريطة ممزقة ، وسأل من الممزّق لها ؛ فمن المفهوم ان جميع التلاميذ لا بدَّ ان يصمتوا عند ذلك ، ولا يجيبوا خشية النتيجة ؛ فاذا ما وقف الفاعل معتذراً معترفاً بما كان منهُ ، فلا ريب ان الأستاذ يسامحهُ ، او يعاقبهُ عقاباً خفيفاً ، ولا يحفظ له تلك

الزلة . لأن مجرد قوله الحق ، يكفي لمحو الذنب ، ويدل على انهُ شريف ، وان ضميره هو الذي دفعهُ الى أن يقول الحق .

(٢) « الانصاف » وهو احدى تلك الفضائل ايضاً ؛ يفرض علينا ان نبتعد عن الشر ، ونحكم النظام والعدل في كل ما يستعمل الانسان قوته فيهِ . فان القاضي الذي يحكم بالسجن ، او بالغرامة على اللص ، أو على من يحدث غوغاء موجبة لتكدير راحة السكان ؛ والذي يردّ الحقوق المغتصبة الى اهلها — لقاضٍ منصف .

ويعد منصفاً ايضاً ، ذلك الاستاذ الذي يعاقب الكسول ، ويكافئ المجتهد .

وكذلك التلميذ الذي يقسم تفاحة مثلاً بين رفقائه ، تقسيماً عادلاً .

(والصدق) وهي الامانة والحزم ، اللذان يستعملهما الانسان في تأدية ما يجب عليهِ .

مثال ذلك : اذا وعد الانسان صديقاً له بأن يؤدي له خدمة ما ؛ فانهُ لا شيء اكثر خباثة ، واشغل للفكر من عدم الوفاء . فان أساس الصداقة هو احترام الوعود ؛ وهو نوع من الاعتبار الواجب لكل انسان نحو شخصه .

ولقد اعتاد بعضهم أن يعزز كلامهُ احياناً ، باستشهاده الله على قوله ، وهو العالم بكل شيء ؛ وهو ما يسمى في عرفنا باليمين . فاذا كان الوعد يجب ان لا يستهان بهِ ، فكيف اليمين . ان الذي يحنث في يمينهِ لرجل ظالم خائن عادم الشرف .

وسلامة الذوق هي امانة سامية ، وانصاف واضح – هي الصدق بأدق معانيه – بل هي تتمة الفضائل أجمع – وهي تقضي باعطاء الحق لصاحبه ، كلما وجد شك.

مثال ذلك : اذا ادعى زيد أن الطريق الذي يفصل مزرعتهُ من مزرعتك ، هو ملك له ، ولم يقم على دعواه دليلاً ؛ الا انهُ رغب في فض هذا التنازع بينكما بغير تقاضٍ ، وكان زيد فقيراً ؛ فان من الواجب عليك ان تتنازل له عن ذلك الطريق ، وتسمح له بضمهِ الى املاكه ، عساه ان ينتفع بزراعته .

او لنفرض ان شخصين أطلقا معاً عيارين ناريين في آن واحد على طائر فوقع – فلمن يكون يا ترى ذلك الطائر ؟ لا شك انهُ اذا كان الاثنان من ذوي الاحساس ، سابق كل منهما زميله في نسبة تلك الاصابة له ، واجتهد في أن يتخلى عنهُ ؛ وربما انتهى الأمر بأن يأكلا تلك الغنيمة معاً ، ثم يكونان بعد ذلك أصدق صديقين في الدنيا .

فالاحساس في الحقيقة ، هو الذي يظهر فضل الانسان ؛ و بدونهِ تكون الفضائل ناقصة لا محالة . فاذا كان من الواجب احترام المنصفين العادلين ؛ فمن الواجب احترام ذوي الاحساس الشريف .

حكي ان نابليون الثالث ملك فرنسا كان يتعهد بناء قصر اللوفر يوماً من الايام ؛ فتقدم اليهِ نحات احجار ، وتوسل اليهِ أن يسمح له باشعال سيجارة كانت بيده من سيجارة الملك . فدهش لأول وهلة ، ثم سأله عن السبب فقال : هذا رهان بيني و بين رفاقي ؛ فضحك الملك

وقال : لقد ضاع عليك الرهان يا بطل ! وخجل النحات ، فرقّ له الملك ، وسأله كم مقدار الرهان . فقال خمسة فرنكات يا جلالة الملك ؛ فأمر له بعشرة – للرهان خمسة وله خمسة — فجاء فعله هذا وسطاً بين مقام الملك ، ومكارم الاخلاق ، ومنتهى سلامة الذوق .

« الملخص »

« الامانة » هي اس الفضائل ، وهي التي تدفع الانسان دائماً لى التمسك بالصدق ؛ « والصدق ، والانصاف ، وسلامة الذوق » هي اشرف درجات الامانة التي يجب ان يتحلى بها الانسان .

« تمرينات »

بماذا يقضي العدل ؟ — هل يكفي ان يعامل الانسان الناس كما يريد أن يعاملوه ، ليكون رجلاً شريفاً ؟ — من المكلف بتطبيق العدل ؟ — لماذا يجب أن يحترم الانسان حياة اقرانهِ ؟ – ما المستثنى من هذه القاعدة ؟ — لماذا يعد الانتحار جبناً ونذالة ؟ – ما المقصود من حكاية الذئب والكلب ؟ – ما حقوق الملكية ؟ – ما السرقة ؟ — هل السرقة على انواع كثيرة ؟ — ما معنى التشهير ، او القذف ؟ — لماذا كان التسامح من الضروريات ؟ — بماذا يقضي الصدق ؟ — ما الذي يدعونا الي الصدق ؟ — ما الانصاف ، وما الامانة ، وما سلامة الذوق ؟

الفصل الثالث

(١) « الاحسان »

التلميذ – يفهم مما تقدم يا سيدي الاستاذ ، ان الجمعية مؤسسة على العدل ، وعلى الشرائع المتخذة منه ؛ وانهُ اذا كان الناس عادلين ، كانت الانسانية تامة .

الاستاذ – لقد اصبت يا ولدي ، ألم اقل لك ان العدل هو أولى الفضائل التي تعرضها القوانين الأدبية ، على الاشخاص المتعاشرين ؟ وقد يوجد شيءٌ آخر لا يقل عنه في فائدة وسعادة الانسان ، ولو انه يوجد صعوبة عظمى في استعماله . وانني ليخيَّل لي ان في امكانك أن تسميه بناءً على ما تقدم .

التلميذ — نعم هو « الاحسان » الذي كثيراً ما دار بخلدي .

الاستاذ – نعم ! لقد اصبت . وكما تكلمنا عن العدل ، فمن الواجب أن نتكلم عن الاحسان الذي هو من متماته – فقل لي اذاً ، ما الاحسان ؟

التلميذ – الاحسان على ظني ، هو عمل الخير مع الجميع .

الاستاذ – هل يكون الانسان محسناً ، اذا لم يقم بكل ما يجب عليه نحو الآخرين .

التلميذ – يعد محسناً اذا بذل كل ما في وسعهِ لاتمامهِ ، ولو لم ينجح .

الاستاذ — اذاً يحسن أن يقال من باب أولى : ان الاحسان هو السعي في نفع الآخرين ، واول درجاته الانعطاف .

ولكن ، لماذا يجب علينا أن نعطف على غيرنا . هل ذلك لأن القوانين الادبية تحتمهُ علينا ، ومن الواجب ان نخضع لأحكامها ؟

التلميذ — نعم .

الاستاذ — اذا كان الأمر كذلك ، فانهُ لا يصح ان يطلق علينا اسم محسنين ، باكتفائنا بابعاد الضرر عن سوانا — فهل أنت على هذا الرأي ؟

التلميذ — لا يا سيدي ! — توجد امور كثيرة غير ما ذكرنا : كالتصدق ، وردّ الامانات ، والسعي في انقاذ الغرق ، والابتعاد عن قتل النفس .

الاستاذ — أتقصد بذلك انهُ يجب علينا ان نكون عادلين ، اكثر مما نكون محسنين ؟

التلميذ — ربما كان كذلك الاَّ قليلاً غير انني لست استطيع التعبير عما في ضميري منهُ يا سيدي الاستاذ .

الاستاذ — سأشرح لك ما لم تكن تعلم : للعدل قاعدة مضمونها « لا تعامل الناس بما لا تحب ان تعامل بهِ » اي « لا تؤذِ أحداً » وقاعدة الاحسان «عامل الناس بما تحب ان يعاملوك بهِ» اي «أحسن الى الناس » . من ذلك يفهم جلياً ، ان الأمر الاول يمكنك أن تعبر عنهُ بقولك « لا تعمل شراً » . أما الثاني ، فانهُ لا يكفي فيهِ

قولك « اعمل خيراً » . لأن عمل الخير لم يكن محدوداً ، فضلاً عن كونه يتغير بتغير الظروف . وزيادة على ذلك ، فان طرقه ومواضعه ، واسعة لا نهاية لها . لذلك يمكن ان يقال بكل اختصار : ان العدل يقضي بان لا تقصر في احترام النوع الانساني ! كما يقضي ايضاً باستعمال ما يستلزمه الاحسان ؛ مما يمكن تلخيصه في النواهي الآتية

لا تقتل – لا تسرق – لا تخدع – لا تغش أخاك – لا تحتقر انساناً — هذا ما يلزمك ان تجيب بهِ من قال لك « كيف اكون عادلاً » . اما اذا قال لك « كيف اكون محسناً » ؛ فانهُ من المستحيل ان توفي الموضوع حقهُ ، لأن دائرته غير محدودة ؛ الاَّ انهُ على كل حال قد يمكن تلخيصها فيما يلي :

« اصنع كل ما يمكنك عمله من الخير لغيرك » — وبذلك يكون مجال حرية العمل متسعاً ، ومع ذلك فكل ما هو واجب في الاول ، واجب لا محالة في الثاني .

التلميذ — حينئذٍ . هل يلزم ان يكون الانسان محسناً ؟

الاستاذ — نعم ، الاَّ ان لهذا اللزوم معنى آخر ، نعني انهُ – لكي نسعى في عمل الخير للآخرين – يجب علينا ان نتحاب .

التلميذ – هل من الممكن ، ان يحب الانسان جميع العالم ؟

الاستاذ – من الواجب ان يكون لكل انسان نصيب من ميلك الطبيعي ؛ بمعنى انهُ يكون مشمولاً بانعطافك نحوه ، ومساعدتك اياه ؛ ومن ذلك تتولد المحبة . فالمحبة توطد دعائم المعاشرة ، وتوجد للانسان

نوعاً من الأسرة ؛ لذلك كان الاصدقاء والمخلصون ، بمنزلة الاخوة ؛ ويكون بينهم من الروابط ما بين أفراد العيلة الواحدة ، ولا يبحثون عن الفائدة ، بل يسعون في توثيق عرى المحبة . فالصفات الحميدة ، والفضائل الجليلة ، والمزايا الجميلة ؛ هي التي تقرب الناس بعضهم من بعض . لذلك كان الرجل الصالح ، لا يحب الاَّ المحب للخير .

ومن الواجب على التلميذ ، أن يتعوَّد منذ صغره ، ألاَّ يخالط الاَّ الصالحين من أقرانهِ ؛ فما أصدق من قال :

« قل لي من عشيرك ، أقل لك من أنت »

التلميذ — هذا ما قاله لي والدي مراراً ؛ ولذلك أصبحت صديق (محمود) الحميم، لأنهُ – وان كان فقيراً – حسن السيرة والسريرة ؛ فضلاً عن كونهِ ذكيًّا ومجتهداً ؛ وبالعكس زميلي الآخر ابن الطحان . فاني فضلاً عن دعوتهِ اياي غير مرَّة لتناول الغداء معهُ ، وتودده اليَّ بكافة الوسائل؛ أنفر منهُ وأجتهد في الابتعاد عنهُ ، لأنهُ شرير .

الاستاذ — يجب على التلامذة العقلاء ان لا يجعلوا اللعب والمزاح سبباً لاتصال المحبة ؛ بل يجب عليهم ان يتبادلوا عمل الخير . بمعنى انهُ اذا مرض أحدهم ، عاده الآخرون ؛ واذا افتقر ، أعانوه ؛ واذا تكاسل ، استحثوه واستنهضوه وعلَّموه ؛ وبالجملة قدَّموا له كل مساعدة ورعاية . فالمحبة التي على هذه الصورة هي أحسن وأفضل ما يتصف بهِ الانسان . فنتيجة هذا الميل الطبيعي ، وهذا الحب اللذين يشترك فيهما كل انسان ؛ يولدان عندنا الاخلاص للناس ، وتضحية

المصالح الذاتية ، وكلاهما لا يمكن ان يكون الانسان محسناً بدونهِ .

أما القوانين الأدبية ، فانها تفرض علينا أمرين مهمين : احترام الوظيفة البشرية ، ونبذ الاغراض الشخصية . اذ ان العدل يستلزم الأولى ، والاحسان يستلزم الثانية . ويمكن ان يعبر عنهما « بالنزاهة » فالنزاهة هي عدم اكتراث الانسان لما يعود عليهِ شخصياً بالفائدة والمنفعة . لأن الانسان لا يكون نزيهاً ، الاَّ اذا فضَّل المنفعة العمومية (كنفعة الوطن ، او الاسرة ، او الجمعية) على منفعتهِ الذاتية ، او منفعة شخص مخصوص (كأحد الاقارب او الاصدقاء) . فلو فرضنا ان احد التجار المشهورين بالذمة والصدق في المعاملة ؛ سوف يشهر افلاسه ، اذا حتمنا عليهِ دفع ما لنا عليهِ من الديون حالاً . او ان زارعاً منعتهُ رداءة محصوله ، من اداء ما لنا عنده ؛ فكم نكون محسنين اذا نحن ساعدنا اولئك الذين يعاونوننا في الحياة والاعمال ، والمحبة والثروة ؛ وتناسينا ما يعود علينا من الفائدة المادية من وراء تلك المطالبة ؟

النزاهة والاخلاص ، هما من عواطف الاسرة ؛ وهما لا ينحصران في تلك الدائرة الضيقة ؛ بل يتعديانها أيضاً الى الوطن والجمعية ، اللذين هما في الحقيقة الاسرتان الكبيرتان لبني الانسان .

« الملخص »

الاحسان ينحصر في حبّ الخير للآخرين ، وهو غير اجباري كالعدل ؛ ويقضي علينا ان نتحابّ ، ويحتم علينا ان نخلص لسوانا ؛ ونضحي مصالحنا الذاتية في سبيل مصلحة الآخرين .

(٢) « الاحسان في الجمعية »

التلميذ – لقد أوضحت لي ياسيدي الأستاذ ما العدل ، وما علاقته بالفرد ، ثم علاقته بالجمعية ، وكيف انهُ اصبح نظاماً مشكلاً ، ذا قوانين تبين ماهيته ، وقضاة يذودون عن حياضهِ . فهل الاحسان كذلك (اي ان الهيئة الاجتماعية ملزمة ان تشترك فيهِ كما اشتركت في التمسك بالعدل ؟)

الاستاذ – الاحسان وان كان واجباً شخصيًّا ، فهو واجب عمومي ايضاً ؛ اذ من المحتم على كل امة متمدينة ، ان تتمسك بهِ وتعتصم بحبله .

التلميذ — وكيف تتمكن الجمعية من اظهار النزاهة والاخلاص ؟

الاستاذ — ان هذين الأمرين قد يتغيران اسماً ، وان كانا لا يتغيران معنى ؛ وذلك تبعاً للأحوال . فالنزاهة مثلاً ، قد تحل في بعض الاحيان محل التضامن ، والاخلاص محل الاخاء .

التلميذ — ذلك ما لم اكن أفهم من قبل .

الاستاذ — ألم تلحظ في كثير من المواضع – حينما حادثتك عن فائدة الجمعية – ان كل مرافقنا ومصالحنا ، مرتبط بعضها ببعض تمام الارتباط ؛ وانهُ من المستحيل الاعتداء على مصالح البعض ، دون التعرُّض لمصالح الآخرين ؟

مثال ذلك : لنفرض ان زيداً حداد ؛ وانهُ سمع ان أسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً هائلاً فقال : مالي والقطن ! وماذا يعنيني من

ارتفاع ثمنه ، ما دام ثمن الحديد على ما هو عليهِ » . ثم بعــد ذلك اراد ان يشتري قماشاً ؛ فعلم ان ثمن المتر اصبح ضعف ما كان عليهِ سابقاً ، او اكثر . ألا يعود على نفسه باللائمة ، لعدم اهتمامه بارتفاع ثمن القطن ؛ وهل تظن انهُ يعود الى مثل ذلك مرة أخرى ؟

او اذا تلفت زراعة القمح مثلاً ، او تفشى مرض البهائم ، او حدثت حوادث خطيرة في بلاد المناجم ، او طغت المياه فأتلفت مزارع او منازل احدى القرى ، لم يكن اصحابها هم الذين أصيبوا فقط ؛ بل الهيئة الاجتماعية عموماً تكون اذ ذاك قد أصيبت . لأن جميع ابنائها متضامنون مشتركون في كل شيء ، سواء كان نافعاً او ضاراً

لذلك فكر الناس في أن يمدوا يد المساعدة لأمثال أولئك المنكوبين ، كما يقتضيهِ التضامن . والتضامن لم يكن معناه الاحسان ، لأن المقصود بهِ المصلحة اكثر من الواجب . فاذا ما نكبت مدينة أو بلدة بنكبة ؛ بان حصل لها غرق او حريق ، او زلزال او طاعون ، اكتتب الناس اكتتاباً عمومياً لمساعدة المنكوبين . وهنالك يجود كل انسان بمـا تسمح نفسهُ بهِ ، تخفيفاً لويلاتُ المصابين ؛ حتى اذا ما تبادلت الناس أمثال هذه المساعدات ، خفت مصائب بني الانسان .

واحياناً تصاب بعض البلاد بمصائب مختلفة ، فتمد لهـا يد المساعدة جميع البلاد الاخرى ؛ أما قرأت حكاية الاعمى والمقعد ؟

يحكى ان أعمى ومقعداً ، كانا مقيمين في مدينة ، وهما في غاية الفقر ، لا قائد للأعمى ، ولا حامل للمقعد . وكان في تلك المدينة رجل

من المحسنين ، يطعمهما و يسقيهما . واستمرا على هذه الحالة الى ان مات ذلك المحسن ؛ فأقاما بعده اياماً وقد تعبا تعباً شديداً . فاتفقا على ان يحمل الاعمى المقعد ، وهو يدله على الطريق ببصره ، ليستطعما أهل المدينة . فنجح أمرهما ولولا ذلك لهلكا .

هاك ملخص تلك الحكاية التي تعلمتهـــا بالمدرسة ؛ وأني أفهم منها ان الانسان يلزمه ان يساعد اخوانه في الاعمـــال . فان الناس لا يتم لهم المعيشة الا بالمساعدة والمعاونة ؛ وانك بالنسبة لذلك لترى صاحب المصنع او المتجر ؛ يبذل كل الجهد في عمل كل ما يكفل راحة عماله ومستخدميه . ففي البلاد الصناعية ؛ يبني صاحب المصنع منازل صغيرة ، يؤجرهـــا لعماله بقيمة زهيدة ؛ ويقدم لهم الآلات اللازمة للعمل مجاناً ؛ ويؤسس المدارس لتعليم ابنائهم فيها — كل ذلك لتوفير أسباب الراحة والسعادة للعمال — وفي مقابل ذلك ، يتفانى العمال في خدمة صاحب المعمل ، ويبذلون ما في وسعهم في كل ما يعود عليهِ بالفائدة والمنفعة .

يعلم من ذلك ان الشكر والامتنان المتبادل بين الناس ، يوجدان في قلوبهم شعوراً راقياً ؛ وهو ما يعبر عنهُ بالاخاء .

اذا رأى الانسان انساناً يتألم ، وتذكر ما صنعهُ معهُ الآخرون عند ما كان هو كذلك — فان كان طيب العنصر حسن التربية — شعر بأن ذلك الانسان ، لم يكن الاَّ أحد ابناء الاسرة البشرية التي هو فرد منهـــا ؛ وان لجميع اخوانهِ الحق في انعطافهِ واخلاصهِ ، وليس المراد

ألاّ يساعد الانسان الاّ من ينتظر منهم المساعدة يوماً ما ، او ان لا يعاون الاّ من يظن انهم يعاونونهُ ؛ بل يعمل الخير حباً في عمل الخير ، من غير ان ينتظر عوضاً . ويساعد ايضاً من لا منفعة لهم في الهيئة الاجتماعية ، كالعجزة والعمي ، والمجاذيب وغيرهم ؛ لذلك قضى الاخاء ان ينشأ في كل مكان مستشفيات تقابل فيها المرضى بكل حفاوة واكرام ، ويعاملون بكل رفق واحسان . والاخاء ايضاً هو الذي ألهم فاعلي الخير ، ان يؤسسوا ملاجئ يلجأ اليها الايتام اللقطاء ؛ فيربون بكل اعتناء ، حتى يقدروا على ما يسدون بهِ الرمق ، ويفيدون الهيئة الاجتماعية التي اتخذتهم ابناءها .

الاخاء — وهو عبارة عن الاحسان العام يشغل مكاناً عظيماً في الهيئة الاجتماعيـة . لذلك لخصت قوانين الثورة الفرنساوية كل ما للوطني وعليهِ من الحقوق والواجبات في ثلاث كلمات : « الاخاء — الحرية — المساواة » . والاول هو الغرض الوحيد الذي يرمي اليهِ كل اجتماع .

« الملخص »

الاحسان ليس بواجب فردي فقط ؛ بل هو ايضاً واجب عمومي . وهو الذي يوجد في الناس حب التضامن ، أو الاعتراف المتبادل ؛ والاخاء والاحسان واجبان على الكل للكل .

(٣) « فضائل الاحسان »

التلميـذ — علمت ان للعدل فضائل — فهل للاحسان مثلها ؟

الاستاذ — نعم ! وما الاحسان الاّ من متممات العـدل كما سبق ذكره ؛ وهو من الأمور التي تساعد على الرقيّ الادبي .

التلميـذ — هل تسيدي ان يشرح لي ذلك ؟

الاستاذ — لعلك تتذكر اننا حينما تكلمنا على العدل ، ذكرنا الأهمّ فالمهمّ : ذكرنا الامانة ، فالانصاف ، فالصدق ، فالنزاهة . اما الاحسان فيتلو العدل ، وأولى فضائله الانعطاف . فالرجل الشريف العواطف ، يكون عادة متلبساً بالفضيلة التي يتحلى بها كل انسان نشأ على حب العدل .

التلميـذ — نعم ؛ ولقد علمت ان الانسان اذا لم يكن عادلاً ، لا يكون محسناً .

الاستاذ — واذا لم يكن كذلك ؛ فمن الواجب عليهِ ان يتعوّده شيئاً فشيئاً ، حيث يبتدئ بالواجبات البسيطة ، ثم يترقى في العمل . وذلك بان يجتهد اولاً في رد ما أخذه من الناس . فاذا فعل ، اجتهد حينئذٍ في الاحسان اليهم ، بطريقة بعيدة عن كل غرض ؛ ويلي ذلك الاخلاص لهم .

اما الرجل الوهاب النهاب ، الذي يسرق ويحسن ؛ فلا يظنّ ان الحسنات ، يذهبنَ السيئات .

التلميذ – لقد وعيت كل ما ألقي عليَّ ، بحيث لم أعد في حاجة الى شرح معنى الانعطاف ؛ فان معناه ان يحسن الانسان الى الفقراء ، ويواسي البؤساء ، على قدر استطاعته .

الاستاذ – نعم ؛ ولكن ألا تعلم ان كثيراً من الاغنياء ايضاً ، قد يحتاجون في بعض الاحيان الى شفقتنا ورأفتنا ومساعدتنا . فالاحسان اذاً ؛ قد يدعو الى عمل الخير مع جميع الناس ، على اختلاف درجاتهم ، وتفاوت طبقاتهم ؛ لنعلّم الجهلاء ، ونرشد الضالّين ، ونردع السارقين ، ونساعد البائسين ، ونخفف الاحزان ، ونصلح العيوب ، ونمسح الدموع ، ونضمد الجروح .

وليس من الكافي ، ان يوضع اليتيم مثلاً ، حيث يعتنى بهِ فيتغذى ويتعلم — فالناس كلهم لا يعدمون خبزاً — بل يجب ان يسعى الانسان في مواساتهم وتسليتهم ؛ حتى لا يعود أحدهم يذكر انهُ فقد أمه أو أباه . وذلك بأن نشجعهم ، ونعلمهم ، ونحبهم ؛ ولقد أنصف أولئك الذين يتبنون أمثال أولئك اليتامى ، ويعاملونهم كأولادهم . وما ذلك الا لتمسكهم بالاحسان الذي معناه في الحقيقة (الحب المتبادل) .

التلميذ — وهل من الواجب أيضاً ، ان نساعد ونعاون منكري الجميل الذين يقابلون الاحسان بالاساءة ؟

الاستاذ – نعم يا بني ! فان حب عمل الخير ، لا يكون تاماً الا اذا كان مقروناً بالشفقة ؛ وهي نتيجة العفو والمرحمة . فاذا لم تسمح الفرص لانسان أن يظهر بمظهر المشفق ؛ فلا أقل من ان يبرهن على

انهُ سمح يتساهل في الاساآت والغلطات التي تتصل بهِ من سواه ، ويتساهل ايضاً مع اولئك الذين ينكرون جميله .

مثال ذلك — اذا اعطيت لتلميذ كرة او (بلية) ، وامتنع عن ان يقرضك شيئاً ؛ او اذا تشاجر معك انسان ، او تكلم في حقك بكلام آلمك سماعه ، فالواجب ان تهز كتفيك استهزاءً مما قال وتتبسم ؛ فلا يلبث أن يتلاشى الغضب وتصغر الجريمة في عينك . ثم مع ذلك لا تحمل له ضغينة ، بحيث اذا عاد اليك ، فافتح له ذراعيك ، وقبّلهُ ما بين عينيهِ ، ترتفع مكانتك في أعين الناس .

أما اذا عابك على هذا الفعل أحمق ، فلا تلتفت اليهِ ، ولا تصغِ الى سخافتهِ ؛ فليس من العار ان يكون الانسان حليماً ، ومحسناً صفوحا .

هاك ما يحدوني ان أذكرك بثالث فضيلة للاحسان ، تلك التي سألتني ان أشرحها لك ، وهي (الكرم) فاني ملخصها لك في هذه هذه الجملة : « لا تقارن بين أعمالك وأعمال غيرك » ؛ لأنهُ اذا انتظر الانسان ان يكون زميله هو البادئ بالاحسان لم يبدأ احد . لذلك كان من الواجب على كل عاقل ان يكون سباقاً الى عمل الخير . فاذا دفعك انسان او سبّك ، فلا تتلبس بالغضب ، ولا تغيّر سحنتك واعتقد ان المسيء لا بدّ ان يلقى ثمرة ما جنتْ يداه ؛ ولا بدّ له من يوم يعود على نفسهِ فيهِ باللائمة ، ويذوب حسرةً على ما كان منهُ — فالبائس في الحقيقة انما هو الشرّير — فاذا كنتَ غنيًّا ، فتصدّق على الفقراء ؛ وان كنتَ فقيراً ، فافعل مثل ذلك أيضاً ، فانهُ سوف

يتضاعف لك الجزاء ؛ فقد قال سبحانهُ وتعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ؛ في كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء »

وليست الصدقة مقصورة على العطاء ، بل المحبة تُعدُّ صدقة في الحقيقة .

التلميذ — وهل الشجاعة فضيلة أيضاً ؟

الاستاذ — نعم ! وهي أرقى درجات الفضائل التي شرحناها . وقد قيل ان احد أبطال الاحسان ، بعد ان صرف كل ما كان يملكه على الفقراء والمعوزين ، استأجر قارباً وأخذ يشتغل ليحصل منهُ على ما يساعده على عمل الخير ؛ وبطل آخر للرأفة ، سامح رجلاً أراد ان يسرقهُ ؛ وبطل آخر للسخاء ، آثر على نفسهِ في وقت الحرب ، جريحاً كان مشرفاً على الموت ظمأً .

« الملخص »

من الاحسان ينتج ثلاث فضائل رئيسية ، تتحد مع فضيلة العدل وهي : الانعطاف ، والرأفة ، والكرم .

والشجاعة أكبر درجات تلك الفضائل التي لا مثيل لها في الرفعة والمكانة .

« تمرينات »

هل الاحسان إلزامي ؟ — لمَ لا يكون للفقراء الحق في طلب الصدقة ، مع علم الجميع ان الانسان يجب عليهِ ان يستعمل العدل في معاملتهم ؟ — بيّن شكل الاحسان ، وصِف فضائله — لماذا أنشأ الناس المستشفيات والملاجئ لتخفيف ويلات الانسان ؟ — هل من الواجب على كل من عولج في أحد تلك المستشفيات ان يعترف لاصحابها بالجميل ؟ — ولماذا ؟ وكيف يعبر عن ذلك ؟ — اضرب مثلاً للانعطاف والمسامحة والسخاء ، ناسباً اياها الى الجمعية ؟ — هل يتسنى للانسان ان يكون نادرة زمانه في فضيلة من الفضائل ؟

« قصيدة اليتيم [1] »

يتيم تقاضاه الهموم حياته ... وتحرمهُ طيب الحياة خطوبُ
وما اليُتْم الاّ غُربةٌ ومهانة ... وأي قريب لليتيم قريبُ
يمرّ بهِ الغلمان مثنى وموحداً ... وكل امرئ يلقى اليتيم غريبُ
يرى كل أمّ بابنها مستعزّةً ... وهيهات ان يحنو عليهِ حبيبُ
يسائله الغلمان عن شأن أهله ... فيحزنهُ ان لا يجيب مجيبُ

(١) لاحد الادباء

اذا جاءه عيد من الحول عاده من الوجد دمع هاطل ووجيبُ
كأن سرور الناس بالعيد قسوة عليهِ يفيض الدمع وهو صبيبُ
يظلُّ حسوداً للذين أظلهم من العيش فينان الغصون رطيبُ
وما علَّم الغل الفتى كمصيبة دهتهُ فلم يعطف عليهِ ضريبُ
فيا ويله قد مزَّق الغــل قلبه وأنشب فيهِ للشقــاء نيوبُ

الباب الثاني

الفصل الاول — الوطن

(١) « الوطن عبارة عن اسرة »

التلميذ — لقد فكّرتُ كثيراً فيما ذكرتهُ لي عن الواجبات المفروضة على الانسان في هذه الحياة الدنيا؛ فعلمت ان سعادة الانسان تتوقف على امرين : — الأول — (احترام الشرف الانساني) — والثاني — (النزاهة) . وبواسطة هذين الأمرين ، يمكننا معرفة كل الواجبات المفروضة علينا نحو الاسرة والهيئة الاجتماعية .

فأما ما يجب علينا نحو الأسرة ، فهو الابتعاد عن الاغراض ومعناه في الحقيقة الارتباط والاخلاص . لأنهُ لا يكفي ان يحترم بعضنا البعض ؛ بل يجب أن نتحابّ ايضاً . وأما ما يجب علينا نحو الجمعية ، فهو احترام الوظيفة البشرية ؛ وهو ما ينشأ عنهُ العدل . والنزاهة وهي ما يقتضيهِ الاحسان .

الاستاذ — حسن ! هذا ملخص الموضوع .

التلميذ — الآنَ انني إخال انا تركنا موضوعاً عظيماً .

الاستاذ — وما هو ؟

التلميـذ — هو الوطن .

الاستاذ — لقد اصبتَ يا بني ، وهل تعرف الوطن ؟

التلميـذ — الوطن هو البلد الذى وُلد الانسان فيهِ .

الاستاذ — نعم ، الوطن هو الارض التي وُلد فيها الانسان ؛ فأحياه هواؤها ، ورواه ماؤها ، ووسعهُ فضاؤها ، وأظلتهُ سماؤها ، وغمرتهُ نعماؤها . فنحن بناء على ذلك مرتبطون بالبلد الاصلي، بشيء هو أشبه بالقرابة . فلا يمكن ان ننفصل عنهُ ، والاَّ كان من وراء ذلك ضرر عظيم ، فكم من أثر ترك لنـا الأقدمون . فالطرق التي نمشي فيها ، والدور التي نقطنها ، والحقول التي نزرعها ؛ كل هذا تراث الأوَّلين منا . هذا ما ترك لنا آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا الذين يعلم الله مقدار ما عانوه في سبيل الدفاع عن تلك الارض التي سقوها بدمائهم الطاهرة .

التلميذ — واسمع أيضاً ان الوطن الحقيقي ، هو عبارة عن الامة ؛ وهي مجموع اشخاص يسكنون بلداً واحداً ، ويخضعون لقانون واحد ، لهم عاصمة واحدة وحكومة واحدة .

الاستاذ — ألا يربط هؤلاء الاشخاص شيء آخر غير ما ذكرت ؟

التلميذ — نعم ، يكون لهم نفس الملامح والجاذبة ، وعلى الأخص ذكرى المجد الذي أحرزه اسلافهم ، والخطوب التي حاقت بهم .

الاستاذ — حقيقة ! وذلك لا شك ميراث يرثونهُ عن آبائهم ، كما ورثوا ارضهم ، وسوف يورثونهُ ابناءهم واحفادهم .

التلميذ — نعم ! عبارة عن اسرة : كالاسرة المصرية .

الاستاذ — هذا ما كنت اريد أن اقوله لك ؛ فانظر كيف كان ذلك هو الحق لا محالة .

البلد الذي يعيش فيهِ المصريون معاً ؛ هو عبارة عن المسكن الذي تقطن فيهِ تلك الاسرة الكبيرة التي تكوَّن منهم جميعاً . وكلهم ابناء « مصر » ؛ فكلهم اخوان يشتغل كل منهم من جهة لغرض واحد ، هو عظمة ذلك المسكن .

التلميذ – اذا كان الوطن هو عبارة عن اسرة كما ذكرنا ، فلا بد اذن أن تكون الواجبات المفروضة على الوطنيين نحو الوطن ، هي عين الواجبات المفروضة على الاولاد نحو منزلهم .

الاستاذ – نعم ؛ وليس هناك الا اتساع المكان ، وازدياد السكان . أما الواجبات ، فانها لم تتغير وان اتسع نطاقها .

انظر كيف قسمنا الروابط التي تربط الاسرة : ذكرنا اولاً واجبات الوالدين نحو الاولاد ، وواجبات هؤلاء نحو الوالدين ؛ ثم واجبات الاولاد بعضهم نحو بعض . فلنطبق هذا على تلك الاسرة الجديدة .

« فالوطن » ، وهو تلك الارض التي يجب علينا ان نحبها بكل جوارحنا ، وندافع عنها باموالنا وأرواحنا ، اعترافاً بما لها علينا من الافضال ؛ بمثابة الوالدة لا محالة . لذلك كان من الواجب علينا ان نتفانى في اعزازه ، والدفاع عنهُ ؛ كما ندافع عن أمنا التي ولدتنا .

وكما ان للاسرة أباً يجب ان نخضع له — كذلك للأمة أب هو الوطن يجمع بين حنوّ الأم وكرامة الأب كما تنطق قوانينه وشرائعه

التي ما وضعت الا لخير أبنــائه وللدفاع عنهم ولذلك كان من المحتم عليهم بحق ان يخضعوا لأوامره المقدسة . وكانت الواجبات والحقوق المفروضة نحو الوطن ، هي نفس الواجبـات والحقوق المفروضة نحو الاسرة . وعلى هذا القياس ، تكون واجبات الاولاد نحو أنفسهم ؛ هي التي يمكننا أن نلخصها فيما يلي :

« محبة . مدافعة . اخلاص »

ألم تكن هذه هي نفس الواجبات المفروضة على كل وطني نحو مواطنيه ؟

اننا كما عبرنا عمــا يجب على الاخوة والاخوات نحو انفسهم ؛ كذلك يمكننا ان نعبر عما يجب على الوطنيين نحو أنفسهم . لأن الوطنيين عبارة عن ابناء جنس واحد ، يجري في عروقهم دم واحد ، لهم لغة واحد ، وخلق واحد ، وماضٍ واحد ، وكلهم يدافعون عن بلد واحد ، كما يسعون وراء غرض واحد : هو مجده ورغده .

أما ابناء تلك الاسرة الكبيرة ؛ فقد يكون منهم الكبير والصغير ، القادر والضعيف ، الغني والفقير . وكلهم يجب عليهم أن يتعاونوا ويتضافروا ، ولا يعمل كل منهم ما يعود عليهِ شخصياً بالفائدة ؛ بل ما يعود عليهِ وعلى مواطنيهِ تشريفاً لذلك الاسم الذي يطلق على الجميع .

مصري واحد ، لا يمكنهُ ان يدنس اسم مصر ؛ كما ان فرداً واحداً لا يدنس اسم اسرة . الاَّ ان جريمة ذلك الفرد ، قد تسيء

الى المجموع . ولذلك ، فالذي يلصق بغيره تهمته ، أو يتسبب له في حزن لا يمكن أن يُعدُّ محبًّا لأسرته ووطنه .

« الملخص »

ارض الوطن ، وخيراته ، وتاريخه ؛ هي عبارة عن ميراث تتداوله الذراري على ممرّ الأحقاب . لذلك كان الوطن في الحقيقة ، عبارة عن اسرة .

(٢) « الوطن عبارة عن جمعية »

الاستاذ — ليس الوطن اسرة فقط ؛ بل هو جمعية أيضاً ، ينطبق عليهِ تمام الانطباق كل ما ذكرناه عن الهيئة الاجتماعية .

التلميـذ — نعم ! ولقد ابتدأنا بشرح ضرورتها وفضائلها .

الاستاذ — أتظن ان الدفاع عن الوطن ، لم يكن من واجبـات الانسان ؟

ان الانسانية هي عبـارة عن متسع عظيم جدًّا ، وأعضاؤها منتشرون أيما انتشار ؛ فلا يتيسر الاشتراك في المصالح ، ولا الاتحاد في الشعور بين أعضاء الجمعية البشرية بمعناها الحقيقي .

نعم — لا أجهل ان الاسكيمو ، والهنود ، والزنوج ، كلهم اخواني ؛ كما تقتضيهِ الطبيعة والعقل . ولكن ما أبعد ارتباطي بهم ! وكم اكون مسروراً لو استطعت ان أقدّم لهم ما أقدر عليهِ من الخدم ، وأتبادل

معهم المحبة والانعطاف ؛ ولكن هيهات ان يتحقق لنا ذلك .

ان الرجال العظام ، والمخترعين الكرام ؛ أمثال (چنر) مكتشف « تطعيم الجدري » و (فرنكلين) ، مخترع « مانعة الصواعق » ؛ و (بابين او فولتون) ، اللذين هما أوّل من عرف استعمال البخار . وكذلك رجال الحكومات ، أمثال اولئك الذين أعلنوا حقوق الانسان وأبطلوا الرقّ ؛ يمكنهم ان يخدموا الانسانية . أما نحن سكان هذه القرية الصغيرة ؛ او أنتَ يا ولدي الصغير ؛ كيف يمكننا ان نفيد الجمعية البشرية . وانما هي مكوَّنة من جملة ممالك ، وشعوب وأمم ، كل واحدة منهـا يتكلم أعضاؤها بلغة واحدة ، ويخضعون عادة لعادات واحدة ، ولشرائع واحدة ؛ وكذلك يدافعون عن أنفسهم أمام عدو واحد مشترك .

فكل واحدة من تلك الأمم ، تنشأ بالاتفاق في بقعة من الارض ، فترتبط معها بكافة الروابط التي نعلمها ، تكون جمعية مستقلة تسمى وطناً .

فالوطن هو الحدّ الأوسط بين الاسرة القليـلة الاتساع ، التي تسع آمال الانسان ولا تفي بحاجاته ، والجمعية البشرية التي امتدَّت أطرافها ، فضمَّت بين شقيها الناس أجمعين ، فضعفت من اجل اتساعها أسباب الاتحاد بينهم بل استحالت

وما قلناه عن الجمعية البشرية وفضائلها ، ينطبق ايضاً على الوطن الذي فيهِ يتحقق معنى الاشتراك وتقسيم العمل . وقد ذكرنا المزايا التي لولاها لما تمَّ النجاح المادي ، ولا توفر رغد العيش . لأن الاشتراك

في العمل وتقسيمه ، لا يمكن حصوله بين أعضاء الجمعية البشرية ؛ بل يكون أسهل بين أعضاء البلد الواحد

وهل لك يا بني ، أن تصف مقدار الفوائد الادبية التي يكتسبها الانسان من وجوده في الوطن ؟

التلميذ — بكل تأكيد وبلا أقل عناء : ان قريتنا هذه الحقيرة ، كان بها من مدة خمسة أعوام ، منزل حقير فيه مدرسة لا تسع اكثر من خمسين تلميذاً ؛ ولذلك كان المعلم يضطرّ ان يطرد عشرين طالباً ، او اكثر في كل عام . أما الآن ، فقد تأسست بها مدرسة فاخرة تحتوي على كل ما يلزم للتعليم ؛ والفضل كل الفضل في ذلك للوطن ، ومشروعات حكومة الوطن .

الاستاذ — وفي الكفور المجاورة التي لا تبعد عنا باكثر من ستة كيلومترات ، كيف كان يتيسر لأهلها ان يرسلوا اولادهم الى تلك المدرسة ؟

التلميذ — انهُ ما كان يأتي منها الا النزر القليل ، ممن لا يزيد عددهم عن الاثنين او الثلاثة ، من كبار التلاميذ ؛ اما الصغار ، فانهم لا يستطيعون ان يمشوا ثلاثة فراسخ في اليوم

الاستاذ — اذاً ، لقد كان ذلك ظلماً فاحشاً ؛ لان سكان الكفور الصغيرة التي لا يتجاوز مقدار أهلها ثلثمائة نفس ، لا يمكنهم انشاء مدرسة على حسابهم . أما الآن ، فقد أصبح في كل كفر مدرسة خصوصية ، وابتدأ كل الوطنيين يتعلمون ويتنورون ؛ والفضل كل

الفضل في ذلك ، لجامعة الوطن .

ان الوطن لم يحصر خيراته في التعليم الابتدائي فقط ؛ ولكنهُ أنشأ كثيراً من المدارس العليا والجامعات (حيث يتخرج منها الاطباء والمحامون والمهندسون والأساتذة وغيرهم) ، وكذلك جميع المعاهد العلمية ، والمراصد ، ودور الآثار . فان كل ذلك مما تنفق عليهِ الحكومة . وبالجملة ، فان كل ما كان مفيداً لتعليم الأمة ، او داعياً للنجاح الانساني ، او مساعداً على انتشار العلوم والفنون والصنائع ، فنحن مدينون بهِ للوطن .

التلميذ — وكذلك قد تحققتُ الآن ، ان جميع الفوائد الأدبية التي نناله من الاجتماع ، هي بفضل الجامعة الوطنية .

الاستاذ — انك لم تخطئْ يا بني ؛ أتذكر اذ كنت أشرح لك كيف أن العدل والاحسان ، لم يكونا من الفضائل التي يختصُّ بها فرد من الأفراد ؛ بل أصبحا من النظام العام . فقد كنت أعني بذلك الوطن ، فانهُ — لكي تكون قواعد العدل ثابتة جلية — كان من الواجب ان تكون مقرَّرة باتفاق سكان الوطن الواحد ، ملحوظة بنفس ذلك الشعور ، ومحترمة من الجميع . وعلى هذا المثال ، يكون الاحسان ايضاً ؛ لأن اعضاء الجمعية البشرية متفرّقون ، ولا يعرف بعضهم البعض ، فلا يمكنهم أن يتبادلوا المساعدة .

أما ابناء الوطن الواحد ؛ فيمكنهم القيام بذلك ، بواسطة تأسيس المستشفيات والملاجئ ، التي يلجأ اليها المرضى واليتامى ؛ و بدون الوطن

وجامعته ، لا يتيسر للانسان ان يتمتع بمزايا العدل والاحسان .

التلميذ – لقد علمت الآن ، ان من الواجب ان يحب الانسان وطنه ؛ ولذلك سأتفانى في حبهِ طول حياتي .

بلادي وان جارت عليَّ عزيزة وأهلي وان ضنُّوا عليَّ كرامُ

« الملخص »

الوطن ليس عبارة عن اسرة فقط ؛ بل هو جمعية ضرورتها وفضائلها واضحة جلية . والهيئة الاجتماعية قبل كل شيء ، لا يمكن ان تقوم لها قائمة الاَّ بالوطن الذي يقرب الناس بعضهم من بعض ، ويجعلهم يتعاونون على اكتساب الفوائد المادية ، والادبية ، والعقلية التي تستوجبها المعاشرة .

(٣) « الوطنية »

الاستاذ – الوطن عبارة عن اسرة وجمعية كما قدمنا ؛ ومن الواجب ، ان يكون لنا قوة نفس الشعور والاحساسات التي نشعر بها نحو الاسرة والانسانية . أتعرف بماذا يعبرون عن هذا الشعور ، اذا كان المراد بهِ الوطن ؟

التلميذ — الوطنية .

الاستاذ — نعم ؛ وبماذا تقضي الوطنية ؟

التلميذ — تقضي بأن يخدم الانسان وطنه ، بصدق واخلاص .

الاستاذ — نعم يجب على الانسان ، ان يحب وطنه ، كما يحب أمه ، ويطيعه اطاعته لوالده . أما من جهة المحبة ؛ فان الطبيعة تحتم علينا ذلك بالرغم منا ، والاَّ ، فمن هو ذلك المصري الذي لا يرقص قلبه طرباً ، عند ذكر اسم مصر؟ ومن ذا الذي لا يسر لسرورها ، ويحزن لحزنها ؟

التلميذ — نعم ، لقد فهمت ان الانسان يجب عليهِ ان يحب جميع العالم ؛ الاَّ انهُ لا يستطيع ان ينكر أمر تفضيله المصريين على سواهم .

الاستاذ — نعم ، ومن ذا الذي يلومك على مثل هذا التصريح ؟ انهُ وان كان من الواجب على الانسان ان يحسن معاملة أقرانه وخلانه ، الاَّ انهُ ليس من المحرم ، ان يحب أقاربه اكثر من الجميع . وعلى هذا القياس ، تكون الحال فيما يختص بالبلد . فمحبة بلدنا ، يجب ان تفوق محبة جميع البلاد الاخرى ؛ وانهُ لهو العدل لا محالة . فكما ان الوطن خيراته علينا أعمّ واكثر من غيره من الاوطان ، فيجب أن تكون محبتنا له بهذا المقدار .

ليس من الصعب ان يحب الانسان وطنه ؛ انمــا الصعب هو احترام شرائعه ، والخضوع لقوانينه واحكامه .

التلميذ — ليس هناك أدنى صعوبة في ذلك ؛ خصوصاً اذا علمنا ان ان هذه القوانين أساسها العدل .

الاستاذ — كلا ! فانهُ ليس أصعب على الانسان من أن يخضع للقوانين التي تقدس الحقوق الصريحة المعترف بها من الجميع ؛ الاَّ ان

الوطن قد يكون من مصلحته احياناً ، أن يحدد بطريقة مخصوصة ، شكل الحكومة وطريقة الادارة ؛ وربما نتج عن ذلك ان تمس آمال وذكرى بعض ابنائه . ومع ذلك ، فان ارادة الشعب (اي الوطن) يجب ان تطأطأ لها الرؤوس ، وتخضع جميع الناس . هذه هي الواجبات التي يفرضها الوطن نحو ابنائه بصفة اسرة . اما فيما يتعلق بهِ بصفة جمعية ؛ فأنهُ يفرض عليهم أموراً أخري ، ينحصر معناها في كلمتين : « التضامن والاخاء » ، ولا اخالك تجهل معناهما .

ان اتحاد المصلحة والمحبة ، لن يكون كما اخبرتك الاَّ بواسطة الوطن ؛ فهو الذي يسهل طرق الاجتماعات ، سواء كان ذلك فيما يختص بالاعمال المادية ، او بمستلزمات العدل والاحسان . ولست في حاجة لأن اشرح لك كيفية ارتباط مصلحة الشخص بمصالح الآخرين ؛ كما انهُ ليس من الضروري ، ان اوضح لك ايضاً ، ان جميع العالم ، يجب أن يكونوا اخواناً . . . فالوطن كما ذكرنا هو أوحد طريقة تربط الاسرة بالانسانية ، وتساعد على تحقيق قصدهما . وكل هذه الواجبات يمكن حصرها وتلخيصها في شيءٍ واحد : وهو «الاخلاص» . فالوطنية على العموم هي فضيلة انكار الذات ، وتضحية النفس ؛ وهي تتناول جميع درجات الفضيلة ، من أول فرض على الانسان ، وهو اداء ما هو واجب عليهِ نحو وطنه ، الى أرقى الخلال درجة (وهي الشجاعة)

ومن أرقى درجات الشجاعة ، الشجاعة الحربية ، وهي التي تقضي على الانسان أن يعرض حياته للاخطار ، حفظاً لكرامة بلده

وسلامته . وهو أصدق برهان يقدمهُ الانسان على شديد اخلاصه ، وصدق وطنيتهِ .

ويوجـد أمر آخر : هو ان يدعو الانسان — أيًّا كان بالقول والعمل — الى السلام والعدل والاخاء ؛ ويقيم البراهين القوية عليها ؛ وبذلك يكون قد خدم بلاده خدمة جليلة تستحق الاعجاب . أما أعزّ وأشرف ما يسعى اليهِ الانسان الحرّ ، فهو ان ينال لقب (وطني) عن أهلية واستحقاق .

« الملخص »

ان الشعور الواجب علينا نحو الوطن ، ينحصر في كلمة (وطنية) بما أن الوطن هو عبارة عن اسرة ، فيجب علينا أن نحبهُ ونخضع لقوانينه ، كما نحب ونطيع والدينا .

وبما انهُ عبارة عن جمعية ؛ فمن الواجب علينا أن نكون مرتبطين بجميع اعضائهِ ، بالشعور والاخاء اللذين معناهما في الحقيقة (الاخلاص)

« تمرينات »

ما وجه الشبه بين الوطن والاسرة ؟ — ممَّ يتكوَّن الميراث العمومي لسكان الوطن الواحد ؟ — كيف يكون للوطن سلطة علينا ، تضارع سلطة الوالد والوالدة على الأولاد ؟ — اشرح كيف يستحيل وجود هيئة اجتماعية ، اذا لم يعرف الانسان له وطناً ؟ — ولماذا يكون

العدل والاحسان في هذه الحالة الأخيرة لا معنى لهما ؟ — لماذا كانت اطاعة قوانين البلاد من شروط الوطنية ؟

الفصل الثانى — الواجبات الوطنية

(١) « الضرائب »

الاستاذ — لقد تكلمنا عن الوطن بوجه الاجمال ، واكتفينا بأن نبين الواجبات العمومية المفروضة على كل انسان ؛ الا انهُ لا يجمل بنا أن نقف عند هذا الحد من الشرح والتفصيل ، فلنستمر في مباحثنا

انهُ من الواجب أن نشرح الآن تلك الواجبات ، والحقوق الخصوصية التي له نحو ابنائهِ ؛ لأنهُ ليس المراد أن تكون الآن غلاماً صالحاً ، ثم تصير بعد ذلك رجلاً شريفاً ، تحترم أينما ذهبت ، وحيثما حللت ، سواء كان في انجلترا ، او ايطاليا ، او غيرهما ؛ بل تكون مصرياً حقيقياً ، ثم بعد ذلك وطنياً صحيحاً ، تفيد اقرانك ، أي اقاربك ومواطنيك .

واول واجب تفرضه مصر على ابنائها ؛ انما هي الضريبة ، وهي عادلة وضرورية . فهل لك أن تخبرني على قدر ما يستطيع تصورك وجه ذلك .

التلميذ — لأنهُ اذا لم تدفع تلك الضريبة ، لا يوجد عند الحكومة

نقود تنفق منها على تنظيف الطرق ، وانارة الشوارع ، ودفع مرتبات الموظفين العموميين ، ورجال الضبط ؛ حيث جرت العادة أن يفر المجرم عقب ارتكابه الجريمة . لذلك كان من الضروري أن تعين الشرطة لاقتفاء أثره ، والمحققون لسؤاله واستجوابه ؛ والقضاة لتبرئته او الحكم عليهِ ، حسبما يظهر لهم من براءتهِ أو ادانتهِ .

وكذلك اشغال المنافع العمومية ، كالترع والقناطر والطرق . . . فليس من الممكن انشاؤها ، اذا لم يشترك في ذلك جميع الناس .

والجيش ؛ وهو ما يستلزم اكثر النفقات — عشرون الف رجل يتغذون ، ويلبسون ، ويتسلحون ؛ فتشتري لهم المدافع ، والبنادق ، وتبني لهم الحصون ، والقلاع — كل ذلك بمبالغ لا يستهان بها .

الاستاذ — لك الحق يا بني ! فان الضرائب هي التي تقوم بدفع كل ما يلزم لذلك ؛ وهي ضرورية وعادلة كما قدمنا . فانهُ لما كان الانسان محباً للرفاه ، كان من الواجب عليهِ اذاً ، أن يضحي شيئاً من ثروتهِ في سبيل ذلك ؛ كما هو متبع في جميع البلاد المتمدينة . فالضرائب بناء على ذلك ، ضرورية لاجراء جميع الاعمال العمومية ، وحفظ النظام ، وما أشبه ذلك . والضريبة يجب أن تكون عمومية والزامية ، بمعنى انها تقسم على جميع الاهالي بلا استثناء ؛ كما انها يجب أن تكون عادلة ، بمعنى انها تفرض على جميع الناس بطريقةواحدة ؛ وان تكون بنسبة مكاسب من تفرض عليهم ، لا فرق بين زيد وعمرو ، ولا تمييز بين الغني والفقير ، والعالم والجاهل . فالحكومة تقدّر المبالغ على

حسب أهمية الأماكن والأطيان ؛ فكلما ازدادت تلك الأهمية ، ازدادت قيمة المبالغ . وعلى ذلك تكون العوائد ، او الضريبة بحسب ثروة الممول . واني لا أظنك تجهل معنى ذلك ؛ لأنهُ ليس من العدل أن يتساوى في ذلك نصيب الفلاّح الذي لا يملك سوى بيتهِ وفدان او فدانين ، بذلك الغني الذي يستغلّ من ارضه مئات من الدنانير سنويًّا . وما قيل عن الزراعة ، يمكن أن يقال عن التجارة ايضاً ؛ بمعنى ان الحانوت الذي لا يزيد ربحه عن بعض آلاف من القروش مثلاً لا يساوى مع ذلك الذي يزيد ربحه عن آلاف الجنيهات . اذ العدل يقضي بأن يدفع كل وطني جزءًا من النفقات اللازمة للوطن ؛ بشرط ان يكون ذلك على قدر حالته المالية . فأصحاب الأراضي الفسيحة ، والتجارات الواسعة ، مكلفون بأن يدفعوا للحكومة اكثر من غيرهم ؛ كما انهم يكلفونها في حراستهم اكثر . والحوذي الذي يملك عشر عربات تشغل الطريق طول النهار ، لا يصح أن يؤخذ منهُ ، ما يؤخذ من ذلك الذي لا يملك سوى عربة نقل صغيرة — وبالجملة ، فان كل وطني صادق ، يجب عليهِ أن يؤدي ما للحكومة كل عام بطيب خاطر ؛ وكل من يتأخر عن القيام بخدمة الوطن ، يكون أحط وأحقر ، من ذلك الذي يأبى ان يسعى للانفاق على أسرتهِ

« الملخص »

ان الوطن الوحيد الذي يجب علينا أن نعرفهُ ونتفانى في خدمتهِ

انما هو (مصر). وهي التي لها علينا واجبات خصوصية ، أوّلها الضريبة التي هي ضرورية وعادلة . والضريبة في مصر عمومية والزامية ، كما انها عادلة ونسبية .

(٢) « الانتخابات »

التلميذ — لقد فهمتُ يا سيدي الأستاذ ، ان دفع الضرائب ، انما هو من الواجبات المفروضة على كل شخص نحو وطنه ؛ ولكنني لا ارى لزوماً لاشتراك جميع الناس في تقدير تلك الضرائب . فاذا أنا أنبتُ عني غيري ، او كان عندي ما يشغلني عن الانتخاب — فأي ضرر هنالك في امتناعي عن الحضور عند انتخاب النواب ، وأعضاء الشورى ؛ لتقدير الضرائب ، وتقرير كيفية سريانها ؟

ألاستاذ – لست مصيباً يا بني ! ولكنني قبل أن أظهر لك خطأك ، اريد أن اوجّه اليك سؤلاً : ألم يكن المندوبون والأعضاء ، مكلفين بشيء غير تقدير الضرائب ؟

التلميذ — اعلم يا سيديّ ، انهم مكلفون ايضاً بسنّ القوانين التي تحتاج اليها المعارف والحقانية ، والداخلية والاشغال ، والحربية وغيرها ولكن ، ألا يقال ضمناً ، ان الانسان متى كان واثقاً بالحكومة ؛ فانهُ يفضل عدم الاشتغال بالسياسة ، وانهُ يعيش هادئاً ، لا يزاحم انساناً في انتخاب زيد ، او اسقاط عمرو ؟

كنت ذات ليلة بالطاحونة لعمل خصوصي ، فسمعت الطحان

يقول : « انني لن أتداخل فيما لا يعنيني . لقد مضى عليَّ عشر سنوات وأنا لا أنتخب ، فليتشاحن على ذلك خلافي ؛ اما أنا ، فلا احرّك ساكناً ؛ فأنا اكبر من ان اعرض نفسي لمثل ذلك » أليس له الحق يا سيدي الاستاذ ؟

الاستاذ — هب انك كنت جندياً ، وكنت في احدى المواقع ؛ وانك بمجرد ان اشتبك القتال ، ودارت رحى الحرب ؛ اجتهدت في ان تكون بمأمن من النيران ، بينما ترى الآخرين يقاتلون مستميتين . ثم أنت تقول « وما لي اعرض نفسي للهلاك ! — دعهم يتقاتلوا كما يشاؤون ! » أتظن انك تكون قد أحسنت عملاً ؟

التلميذ — كلا ! . . . كلا ! . . .

الاستاذ — عرفت ما تريد ان تجيب بهِ . . . أنت تريد ان تقول ان السياسة ليست الا عبارة عن اشتغال الانسان بالاعمال العمومية ، ولم تكن موقعة من مواقع الحرب ؛ حيث يعرض الانسان نفسه للاخطار ، فلا عدو يرجى قهره ، ولا بلد يراد صد الغارة عنهُ ؛ وان هي الا مشاحنة ، والحقيقة ان كليهما واحد . لأن ذلك العمل لا يقصد بهِ الاَّ سلامة الوطن ومستقبله . فبعضهم يودّ ان يدير ادارتهُ على طريقة مخصوصة ، والبعض الآخر يفضل على تلك الطريقة غيرها . فهذه الآراء المختلفة ، تجتمع في نقطتين متضادتين ؛ ويأخذ كل فريق يدافع عن رأيه ، ويسعى في استمالة الآخرين اليهِ ؛ وبذلك تسير الحكومة في الطريق الأصلح .

فاذا كان لك رأي صائب مفيد للوطن — ألا تدري انك مجني اكبر جناية ، اذا لم تخض غمار تلك الموقعة السلمية ؟ ان جنايتك في هذه الحالة ، لا تقلّ عن جناية ذلك الجندي الذي يفرّ من مواقع القتال.

أما ما قاله الطحان ؛ فهو حديث رجل يستسلم لجميع الاشياء ، فلا يهتم الا بأمر نفسه ؛ وانهُ لرجل خائن ، لا يحب وطنه ، ولا يعلق أدنى أهمية على سعادتهِ وشرفهِ . فاذا ما فعلت أنت كذلك ، فانظر الى أين يكون المصير ؟

ان الامتناع قد يكون خطأ ، الا أنهُ قد يتحوّل في بعض الاحيان الى جريمة ؛ لأن الضرر قد ينشأ أحياناً من القعود عن عمل الخير .

التلميـــذ — لك الحق يا سيدي ؛ الا انهُ من الصعب أن يعرف الانسان كيف ينتخب .

الاستاذ — انهُ لكذلك حقيقة ؛ ولكن الانسان يجب عليهِ ان يحتاط بكل الوسائل ، ليكون في جانب الحق والعدل . فينتخب قبل كل شيء ، بتمام الحرية ، وعلى حسب ما يوافق ذمتهُ وضميره . ولكي يكون الانتخاب حرًّا ونزيهاً ؛ يجب على من ينتخب ، ان يبحث بحثاً دقيقاً عن حالة من سينتخبهُ . فعند ما يطلع على الجرائد ، ويعقد النية على الاشتغال بصالح بلده ، يسعى في معرفة صناعة ومكانة العضو الذي سيقرر انتخابهُ ؛ وكذلك يسأل عن ماضيهِ ، وأخلاقهِ ، وآرائهِ ؛ حتى اذا ما سئل عن سبب انتخابهِ لذلك العضو ، أجاب بما ينقع الغلة. ولذلك يجب ان يكون المنتخب مستقلاً ، ومن العار ان ينقض العهد .

« الملخص »

يجب على الانسان أن يهتم بأعمال بلده ؛ كما يجب عليهِ ان يحضر الانتخاب ، ليوضح بواسطة الذي ينتخبهُ الطريقة التي رآهـا صالحة للسير على مقتضاها . أما الامتناع ؛ فانهُ خطأ ، قد يتحوَّل احياناً الى جريمة . الانتخاب يجب أن يكون حرًّا وعلنياً . فاذا ما انتخب العضو وجب أن يحترم استقلاله ؛ كما يحترم ذلك الأمر الذي عهد بهِ اليهِ .

(٣) « الخدمة العسكرية »

الاستاذ — هل ذلك هو كل ما يجب على الانسان نحو وطنه ؟ أليس هناك أمر هو اكثر أهمية ، وأوفر حظاً من كل ما تقدم ؟ تذكر .

التلميذ — الخدمة العسكرية .

الاستاذ — نعم نعم ! هي بعينها ؛ وهل تقدر أن تذكر أهميتها ؟

التلميذ — أرى يا سيدي انهُ اذا كان لمصر جيش ، كان من الواجب على جميع المصريين ان يكونوا من أفراده ؛ ولكني لست أدري ما ضرورة الجيش . أليس من الممكن أن نتفق مع جميع الأمم الأخرى ، على ابطال الحرب ؛ او — اذا كان لا بد من ذلك — فلمَ لا تقوم الأمة عن بكرة أبيها ضد العدو عند الاقتضاء ؟ ان العساكر لا يشتغلون طول حياتهم بغير التمرينات العسكرية ، والاعمال الحربية ؛ ثم هم يحرمون اسراتهم وجودهم بينها ، وينسون صنائعهم التي تعلموها .

الاستاذ — هذا من التصوُّرات الخيالية يا بني ! هذا فرض المستحيل ! وأنت قد جمعت في قولك هذا ، نوعين من هذه الخيالات :

فأما الاول ، فهو ظنك انهُ من الممكن ان يتفق مع جميع الأمم الأخرى على ان يسود السلام . فكم فكر المفكرون في ذلك ، وكم تكلموا عن ضرورة نزع السلاح ، وتعيين لجنة تحكيم ، يكون الغرض منهــا الفصل في المنازعات التي تقع بين بعض الامم و بعضها بالطرق الحبية . . . اعتقد اننا اذا قررنا نزع السلاح ، فان الآخرين لن يتبعونا في ذلك ؛ بل بالعكس ينتهزون الفرصة للاغارة على املاكنا ومصالحنا . والبلد الذي ليس فيهِ جيش عامل ، ولا عساكر مدرَّبون في وقت السلم ؛ يتعرَّض لكثير من الاخطار ، ويقع في قبضة جاره الذي يكون اكثر احتراساً منهُ .

وأما الثاني ، وهو اقتراحك ان تخرج الاهالي دفعة واحدة لمقاتلة العدو ؛ فلقد كان ممكناً في سنتي ١٧٩٢ و ١٧٩٣ ، وبهِ تخلصت فرنسا ، وما ذلك الاَّ لأن (السونكي والقرابينه) ، كانتا هما السلاح الوحيد لجميع المحاربين . أما الآن وقد اخترع ما يردي الانسان عن بُعد ، بحيث لم تعد تفيد الشجاعة ؛ فقد أصبح النظام ، وضبط استعمال الاسلحة ، واتقان الحركات العسكرية وغير ذلك ، وتعليم العسكري ، وامكان حشد جيش عظيم وقت الحاجة من أهم الضروريات .

التلميذ — ولكن ؛ هل من الضروري أن يندمج جميع الشبَّان ، في سلك العسكرية ؟

الاستاذ — انني لا أقول انهُ من الضروري ؛ بل أقول انهُ من المفيد جدًّا . لأن وفرة عدد العساكر ، أصل النجاح ؛ وهو الذي عليهِ المعول الآن كما أسلفنا ، فضلاً عن كونهِ مما تقتضيهِ المساواة . لأنهُ ليس من العدل ، أن يعرّض البعض حياتهم للاخطار ، ويخاطروا بأرواحهم ؛ بينما يكون البعض الآخر في منازلهم هادئين مطمئنين ، لا يؤدُّون للوطن أدنى خدمة .

أما واجبات العسكري في فرقتهِ ، او (الآيه) — ولا أظنك تجهل ذلك — فأوَّلها (النظام) ؛ وبدونهِ لا يمكن أن يكون الجيش قويًّا متيناً ، ذا بطش ؛ كما انهُ لا يمكن ان يكون النصر حليفهُ .

والنظام ينحصر في اطاعة أوامر الرؤساء ، ومحبة العلم المصري واحترامه ؛ لأنهُ هو الذي يمثّل الوطن ، ومجده ، واحسانه ، وواجباته المقدسة لدى كل وطني . أما في مواقع القتال « فالاقدام والاخلاص » ومنهما تكون الشجاعة .

انهُ لمن الواجب ان يكون الجيش أفضل مدرسة للوطن ؛ اذ عليهِ تتوقف سعادته وشرفه ، وفيهِ تنحصر كل آماله . انهُ لم يكن كجزء منفصل عنا ؛ بل هو الأمة بتمامها ، تدافع عن نفسها أمام صدمات العدوّ ، وتطلب من كل عضو من أعضائها الإخلاص والمساعدة اللذين يُنتظران من كلٍّ منهم ، متى كان سليماً لا عاهة فيهِ . وان الجيش ليكون أشدّ اخلاصاً ، واكثر اتحاداً مع الأمة التي هو منها ؛ متى تمرَّن جميع أفراده على خدمتهِ منذ الصغر .

فالنظام المدرسي الذي يتعلمهُ الأطفال منذ طفولتهم ، قد يسّهل عليهم التعليمات العسكرية . فان أطفال اليوم ، هم رجال المستقبل الذين سيدافعون عن وطنهم بكل قوّة وحماسة .

« الملخص »

ان الخدمة العسكرية ، لا تقلُّ في الأهمية عن الضرائب والانتخابات وهاتان هما من أقدس واجبات الوطني . فمن الضروري والحالة هذه ؛ ان يكون لكل بلد جيش عامل، يحفظ كيانه واستقلاله ؛ والخدمة العسكرية يجب ان تكون إلزامية للجميع ، وهو العدل لا محالة

ليس الجيش الاَّ الأمة كلها ، تدافع عن نفسها أمام العدوّ ، وتستعد بواسطة النظام والتدريب ، لحفظ ميراث الأقدمين .

« تمرينات »

لماذا كانت الضرائب من أهم الواجبات المفروضة على كل وطني نحو وطنه ؟ — اذكر ما تعلمهُ عن ضرورة الضرائب ومشروعيتها — لماذا يعد اهتمام الانسان بشؤون بلده وسير أعماله ، فرضاً واجباً ؟ — كيف يعبر الانسان عن رأيهِ وفكره ؟ — ما رأيك في اولئك الذين يمتنعون عن اعطاء أصواتهم في الانتخابات المهمة ؟ — لماذا كان من الواجب على كل أمة — والحالة هذه — ان تعد لها جيشاً عظيماً قوياً ؟ — لماذا لا يكون قيام الأمة باكلها دفعة واحدة للحرب ، من

الأمور المفيدة ؟ — لماذا كانت الخدمة العسكرية إلزاميـة ؟ — ما الذي يقتضيهِ النظام ؟ — لماذا كان من الضروري ان كل قوّة مسلحة يجب ان تخضع لنظام مخصوص ؟ — ما فائدة التدريب العسكري المدرسي ؟

الفصل الثالث — الحقوق الوطنية

(١) « المساواة »

التلميذ — لقد أوضحت لي يا سيدي الاستاذ — فيما سبق — جميع الواجبات المفروضة على الوطني نحو وطنهِ ؛ الا انك لم تذكر اي شيءٍ عن واجبات الوطن نحو ابنائهِ !

الاستاذ — الحقوق يا بني نتيجة القيام بالواجبات .

التلميـذ — وما معنى ذلك ؟

الاستاذ — معناه ان الحقوق تنشأ من نفس تأدية الواجبـات ؛ لأن الواجبات المفروضة على غيرنا لنا ، هي حقوق لنا . ولذلك كان كل حق مرتبطاً بواجب ، وكل واجب مرتبطاً بحق ؛ كما هو الحال في جميع الجمعيات المنظمة .

التلميذ — اذاً ، يجب على من يريد معرفة الحقوق ان يبدأ بمعرفة الواجبات المفروضة على كل مصري قانوناً .

الاستاذ — نعم يا بني ؛ وقد تنقسم هذه الواجبات الى ثلاثة أقسام :

الأول — دفع الضرائب (أعني مقاسمة الوطن في نفقاتهِ) ؛
الثاني — حق الانتخابات (أعني الاشتراك فعلاً في ادارة حكومة البلاد) ؛
الثالث — الخدمة العسكرية (اي الدفاع عن الوطن ، والمحاماة عنهُ أمام العدوّ). ولنبحث عن الحقوق التي تترتب على هذه الواجبات.

ان في فرض الضرائب على الممولين ، بلا فرق ولا تمييز بين رتبهم ووظائفهم ، برهاناً على ان جميع أبناء الوطن سواء في نظر القانون وجميعهم — بما انهم مكلفون بدفع نفقات ادارة البلاد ، كل بحسب ثروتهِ — لهم حقوق شرعية واحدة ، كحق التملك لجميع ما يرثهُ الانسان ، او يكسبهُ بعمله ، طبقاً للقوانين المرعيـة . والجميع — كما انهم متضامنون في حاجيات الوطن — لهم حق الاشراف على طريقة توزيع الأموال العمومية على تلك الحاجيات .

ومما تقدم ، ينتج ثلاثة حقوق للوطن :
الاول — المساواة المدنية ؛
الثاني — حق الملكية ؛
الثالث — حق الرقابة على استعمال الاموال التي تقررت برأي الامة.

وليس المراد من تساوي الافراد ، ان لا يكون بينهم الضعيف والقوي ، أو الفقير والغني ، أو الوضيع والرفيع ؛ بل كل هذه الفوارق الظاهرية التي هي نتيجة الاتفاق والمصادفات ، لا تزال موجودة ؛ ولكن لا تأثير لها في الحقوق العامة . بمعنى أن الغني القادر اذا اعتدى

على القانون ، عومل كما يعامل أحقر صانع أو مزارع ؛ وبالعكس كل من خدم بلاده بصدق واخلاص ، كانت له المكافأة الحسنى ، ولو كان وضيعاً

ولما كان الناس متساوين لدى القانون ، وجب أن يتمتع كلٌّ بما يمتلكه من ثمار أعماله بأمان وطمأنينة تامة . أي أن يكون محترماً في شخصهِ ، محترماً في ماله ، ووجب على الهيئة الاجتماعية أن تؤيد له احترام جميع حقوقه ، وذلك بواسطة القضاء العادل .

ولما كان كل فرد يدفع جزءًا من نفقات الادارة العمومة للبلاد ؛ كان له الحق في مراقبة صرفها في الشؤون العمومية .

وتكون هذه المراقبة بواسطة النواب المندوبين عن كل مديرية أو مركز ، في مجالس المديريات ، أو المجالس النيابية الاخرى ؛ وهم الذين يعرضون للحكومة مطالب ورغبات المنتخبين من قبلهم .

فالاقتراع العام ، هو المؤيد لمبدأ المساواة من ابناء الوطن ؛ وبواسطة المندوبين يتيسر للجميع مراقبة الشؤون العمومية .

(٢) « الحرية »

الاستاذ — قال الاحنف لمعاوية يوماً : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » اذاً فجميع الوطنيين متساوون . ولمَ ذلك ؟ لأنهم جميعاً أحرار . لذلك كان لهم حق الانتخاب الذي بواسطته

يمكنهم أن يبدوا رغائبهم المتعلقة بالطرق التي يرغبون ان تتبعها الحكومة في ادارة شؤون البلاد .

وقد ينشأ عن الانتخاب ثلاثة حقوق أيضاً :

الاول — الحرية المدنية ، والسياسية ؛

الثاني — حق ابداء الرأي ، والاشتراك الفعلي في حكومة البلاد بواسطة الانتخابات ؛

الثالث – السلطة السياسية المعترف بها بلا قيد ولا شرط، لمجموع أهل الوطن الواحد ، ؛ أعني السيادة الأهلية ، أو سلطة الأمة .

فقد قضت القوانين ان يكون الانسان مستقلا مسئولاً عن عمله ؛ له الحق في أن يشتغل ويعيش بلا خوف ، ولا اعتداء عليهِ من أي انسان .

وما معنى تلك الحرية التي خولتها لنا الحكومة ؟ أمعناها أن يفعل الانسان كل ما يحب ويختار ، بلا شرط ولا قيد ؟ كلا ! فان الحرية تقضي بأن لا يفعل الانسان ما فيهِ ضرر لغيره ؛ وما عدا ذلك فلكل انسان الحق أن يروح ويغدو حيثما شاء ، ويشتغل ويستريح كيفما شاء . مع حرية القول والفعل كما يشاء . لأن القانون لا يحرم الاَّ الأعمال المضرَّة بالهيئة الاجتماعية ؛ وكل ما لا يكون محظوراً ، فهو مباح لا محالة . وليس لأي انسان الحق في عمل ما لا تبيحهُ القوانين .

ان احترام النوع الانساني لهو القاعدة التي تأسست عليها الهيئة

الاجتماعية . وبما أن الانسان حرّ – بشرط ان لا يخل بالنظام العام – فهو حرّ ايضاً في أفكاره ومعتقداته ؛ وهو ما يعبر عنهُ بحرية الضمير كما انهُ مستقلّ الفكر والرأي ايضاً . فان لكل وطني أن يتكلم ويكتب ، وينشر ما يشاء بكل حرية ، ما دام ذلك غير خارج عن دائرة القانون .

قال ميلتون شاعر الانكليز : « أعطني حرية القول والتعليم ، فاني لا أخاف بعد ذلك على الحق من عواصف الآراء ، واختلاف المذاهب . فان الحق يلي المولى عزَّ وجلَّ في المرتبة ؛ ولذلك لا يحتاج في نصرتهِ الى الكذب او الحيل »

وعليهِ ، فما دام كل انسان حرًّا فالهيئة الاجتماعية يجب ان تكون كذلك ؛ كما يجب ان تكون لها الحرية التامة في ادارة شؤونها بنفسها. وهذا هو الحق الثاني الذي يشمل الاستقلال السياسي لأهل الوطن .

كل امة او حكومة ، انما هي عبارة عن جمعية ؛ أعضاؤها (وهم الوطنيون) . لهم مصالح عمومية لا يتمكنون من مباشرتها شخصيًّا . لذلك وكلوا امرها الى مأمورين تعينهم الحكومة ؛ الاَّ انهم على كل حال ، يحفظون لأنفسهم الحق في ابداء رأيهم ، فيما يختص بالطرق التي تتبع في حكومتهم ، والاشتراك في أعمال البلاد .

فالجمعية السياسية ، هي عبارة عن اجتماع جملة أشخاص ، لهم حقوق وواجبات ، ومصالح تكون للنظر في فائدة الجميع ؛ وبالأخص للنظر في أمر سعادة الوطن . ويمكنك ان تفهم ان مبدأ الحرية

والمساواة بين جميع الناس ، قد غير معالم النظام السياسي ؛ لأن كل انسان بما له من المصلحة في الهيئة الاجتماعيـة — أي علاقة الأمة بالحكومة في ادارة المصلحة العمومية — و بما له من الارادة التي لا تقل في الاحترام عن ارادة اي انسان كان ، وجب عليهِ ان يجاهر بها ، و يعمل لتأييدها .

وكما ان للانسان حقوقاً في الهيئة الاجتماعية ، هي الحقوق المدنية ؛ فان له ايضاً حقوقاً نحو الحكومة ، وهي الحقوق السياسية .

فالأمة هي منبع السلطة ، و باسمها يصدر الأمر والنهي ، فأصل كل سلطة يجب ان تستمد من الأمة ، وهو ما يعبر عنهُ بالسلطة الاهلية.

« الملخص »

الواجب الذي يحتم على كل انسان الاهتمام بأعمال الحكومة ، له ثلاثة حقوق :

الأول — الحرية المدنية ، والسياسية لكل وطني ؛ ومن ضمنها حرية الضمير ، والعمل ضمن دائرة القانون .

الثاني — حرية الاشتراك مع الحكومة ، بواسطة المندوبين المنتخبين في الانتخابات .

الثالث — احقيـة الوطنيين في ادارة شؤون الوطن (باسم السلطة الاهلية) .

(٣) « الاخاء »

التلميذ — وواجب الانضواء تحت لواء الوطنية ، والموت في الدفاع عن الوطن ؛ ألا يترتب عليهِ وجود حقوق أخرى ؟

الاستاذ — نعم يا بني ؛ حق من أقدس الحقوق وأشرفها ، ذلك هو « الاخاء » .

اذا ضحى أحدنا حياته في خدمة الوطن ؛ فما ذلك الاَّ لأنهُ يعتبره كالأم الواجبة مساعدتها والدفاع عنها . واذا قدم نفسه فداء أبناء وطنه ؛ فما ذلك الاَّ لاعتقاده بأنهم اخوته الذين سوف يفدونهُ بأرواحهم يوماً ما ، اذا جاء دورهم .

فمن حقوق الاخاء ، عناية الوطن بتربية ابنائهِ صبية صغاراً ، بانشاء المدراس والاصلاحيات ؛ بكفالتهم شيوخاً ضعافاً ، بتأسيس الملاجئ والمستشفيات .

ومن حقوق الاخاء ، افتخار الوطني بابناء وطنهِ ، اذا أتى احدهم أمراً جليلاً أو فعلاً جميلاً ، يهتزُّ فرحاً اذا رأى العلم المصري خفاقاً يحمل في ثناياه مجد مصر الأثيل ، ويحنّ في غربتهِ حنين الولهان لذكرى ذلك البلد الأمين .

ومن حقوق الاخاء ، حماية الشبان لكل ضعيف : من شيوخ واطفال ، وربات حجال ، كما يحمي الفتى أباه الكبير ، واخاه الصغير عند حلول الاخطار ، وتغير الاحوال .

واذا مات الوطني في ساحة الوغى والقتال دفاعاً عن وطنـــهِ ، بكاه قومه بكاء الأخ لأخيـــهِ ، ووضعوا على رمسهِ اكاليل المجد والفخر ، وخلدوا ذكراه مدى الأيام بالحمد ومحاسن الآثار .

فالاخاء هو سلوان النفوس ، وميثاق القلوب ، والفداء الممدوح عند الحاجة اليهِ .

« تمرينـات »

ما معنى كل واجب يلزم ان يكون مقروناً بحقه ؟ — كيف يكون جميع الوطنيين سواء أمام القانون ؟ — اذكر حقوق الملكية — لماذا كان لكل من يدفع الضرائب ، حق الرقابة على ما يصرف من تلك الأموال — ما معنى الحرية ؟ — ما حرية الضمير ؟ ألا يعد القانون عقبة في سبيل حريتنا الشخصية — ما السلطة الاهلية ، وكيف يكون لكل وطني نصيب منها ؟ — ما الواجبات ، والحقوق التي ينشأ عنها الاخاء بين جميع المصريين ؟

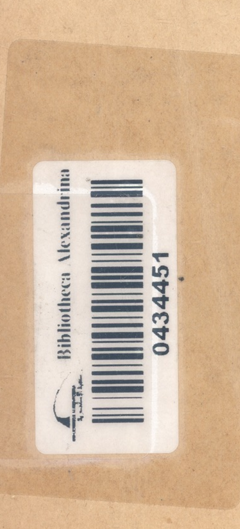


تمَّ الجزء الثاني ويليه الثالث وأوله (القانون العام)

فهرست

« الجزء الأوّل »

✱ الجزء الثاني ✱


Bibliotheca Alexandrina
0434451